الاتصال الدعوي

أسسه المعرفية وتطبيقاته المنهجية

الدكتور

محمد بابكر العوض عبد الله

1401هـ - 1981م
1981AC - 1401AH

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الاتصال الدعوي

أسسه المعرفية وتطبيقاته المنهجية

الاتصال الدعوي

أسسه المعرفية وتطبيقاته المنهجية

الدكتور

محمد بابكر العوض عبد الله

1401هـ - 1981م
1981AC - 1401AH

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية
الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

الاتصال الدعوي؛ أسسه المعرفية وتطبيقاته المنهجية

تأليف: محمد بابكر العوض عبد الله

موضوع الكتاب: ١- الاتصال الدعوي ٢- أسس الاتصال الدعوي المعرفية
٣- تطبيقات الاتصال الدعوي العملية ٤- نظم التعليم والاتصال الدعوي
٥- علم الدعوة ٦- علم الاتصال الإسلامي

ردمك (ISBN): ٧-٨٢٢-٥٦٥٦٤-١-٩٧٨

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٨/١١/٥٨٨٤)

ردمك (ISBN): 978-9923-736-00-5

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب ٩٤٨٩ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبّر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدمة **٩**

الباب الأول **٢٥**

التأسيس المنهجي للاتصال الدعوي

الفصل الأول: مدخل إلى تكامل مفاهيم الدعوة والاتصال **٣١**

أولاً: الدعوة بوصفها مفهوماً اتصالياً ٣٢

ثانياً: تعريف عام للاتصال الإنساني ٥١

ثالثاً: العلاقة بين الدعوة والاتصال ٥٦

الفصل الثاني: التكامل المنهجي بين الدعوة والاتصال ٦٩

أولاً: مبدأ التكامل في مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية ٧٠

ثانياً: واقع العلاقة بين علم الاتصال والعلوم الأخرى ٧٨

الباب الثاني **٨٣**

التأصيل النظري للاتصال الدعوي

الفصل الأول: الأسس القرآنية للاتصال الدعوي ٨٧

أولاً: الأسس القرآنية للمعرفة الاتصالية: ٩٠

ثانياً: الأبعاد الوجودية والحضارية للاتصال في القرآن ١٠٢

ثالثاً: بعض مبادئ ومرتكزات التواصل الإنساني في القرآن: ١٠٥

رابعاً: من خصائص الرؤية القرآنية للاتصال: ١٠٨

الفصل الثاني: الهدي النبوي في الاتصال الدعوي **١١٣**

أولاً: وقفة مع مقام االنبوة ودعوة الرسل ١١٣

ثانياً: أهمية دراسات السنة والاتصال ١١٧

ثالثاً: معالم الرؤية التواصلية في السنة المطهرة ١٢٦

رابعاً: تنظيم حركة الاتصال الدعوي في عهد النبي ﷺ ١٢٨

الفصل الثالث: ملامح الإطار النظري للاتصال الدعوي **١٣٩**

أولاً: خصائص النظرية الاتصالية وموضوعاتها ١٤٢

ثانياً: نظريات التأثيرات المعرفية لوسائل الاتصال ١٤٧
ثالثاً: اتجاهات نقد النظرية الاتصالية ١٤٨
رابعاً: نحو نظام اتصالٍ إسلامي ١٥٠
الباب الثالث **١٥٧**
الجوانب العملية للاتصال الدعوي
الفصل الأول: الفعل الدعوي المفهوم والخصائص **١٦١**
أولاً: مفهوم الفعل الاتصالي ١٦١
ثانياً: أركان الفعل الدعوي ١٦٢
ثالثاً: مستويات وميادين الفعل الدعوي ١٧٣
الفصل الثاني: الاتصال الدعوي المقصد والوظيفة والتأثير **١٨١**
أولاً: مقاصد الفعل الاتصالي ١٨٤
ثانياً: المقاصد الدعوية ١٨٥
ثالثاً: وظائف الاتصال الدعوي ١٩٢
رابعاً: مبادئ وقواعد الاتصال الدعوي ٢٠٣
خامساً: فاعلية الاتصال الدعوي ٢٠٦
الباب الرابع **٢١٥**
الاتصال الدعوي في أنظمة التعليم
الفصل الأول: الاتصال الدعوي في المناهج الجامعية **٢١٩**
أولاً: المناهج الدراسية، وأهميتها في مجال الاتصال الدعوي ٢٢٠
ثانياً: تجارب الجامعات في تدريس مناهج الاتصال الدعوي ٢٢٣
الفصل الثاني: البحث العلمي في الاتصال الدعوي **٢٣٧**
أولاً: مفهوم بحوث الاتصال الدعوي وأهميتها ٢٣٨
ثانياً: توجيه البحث في مجال الاتصال الدعوي ٢٤١
ثالثاً: مقترحات لبحوث جامعية في مجال الاتصال الدعوي ٢٤٨
الخاتمة **٢٧٣**
المراجع **٢٧٧**
الكشاف **٢٨٩**

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تزكو المعارف وتتجدد، وتكتسب أهم خصائصها حين يغدو العلم مظهراً من مظاهر العبودية لله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وإذا كان العلم القائم على ما وصل إليه من فتوحات مذهلة يرجع منجزاته كلها للتفاعل بين العقل البشري والوجود الكوني؛ فإن ما يميز المعرفة الإسلامية أن معطياتها تأتي نتيجةً للتفاعل الدائم بين معطيات الفطرة البشرية القائمة على تمام التعقّل في ارتباطها بالوحي الإلهي والحقائق الموضوعية في ارتباطها بالعلم الناتج عن السعي المعرفي للإنسان.

ويشهد التاريخ أن كسب وإسهام مجتمعات التوحيد في ضروب المعرفة الإنسانية يعظّم ما حرصوا على ذلك التفاعل وانضبطت لديهم حركة علمية بمنهجية تقوم على التنسيق الدقيق بين "مطلقية" حكم الوحي "القرآن الكريم" و"معيارية" حكمة السنة النبوية المطهرة، و"دينامية" الواقع البشري المتمادي في صيرورته وتطوره وكدحه إلى الله تعالى.

إن خلود الرسالة الإسلامية وامتدادها زماناً ومكاناً رهن بهذا التفاعل الخلّاق القادر على توليد العلم التوحيدي المتماهي مع المسيرة المبصرة للكون والإيفاء بالاحتياجات المعرفية المتجددة والمجَدِّدة للمسيرة البشرية والتجربة الإنسانية، وإن من أهم ما وصل إليه الإنسان المعاصر من الحقائق أن العلم والمعرفة قوة في المنطق والمعالجات والنتائج، وهي بذلك قوة في يد من يمتلكها ويوظفها، فالمتمكن من المعرفة وتطبيقاتها قادر على التحكم والتأثير في المتعاملين مع تلك المعرفة، استخداماً وتوظيفاً.

لقد حظيت الدعوة الإسلامية منذ انطلاقتها باهتمام أوليائها من المؤمنين، وازدراء أعدائها في مجتمع الدعوة الأول من عشائر أم القرىٰ ومن حولها، والجيوب الكتابية المحيطة بجزيرة العرب وما وراء ذلك من محاور القوىٰ الدولية من الفرس والروم وحلفائهم في الشام والعراق واليمن، مما جعل ظهور الأمة الإسلامية في قفر من الحضارة وشيوع ذكرها بعد خموله لقرون، ولفتها المفاجئ لأنظار العالم ظاهرةٌ وانتقالةٌ كبرىٰ في مسار التاريخ البشري.

فقد مهّدت العناية الإلهية لهذه اللحظة قبل مجيء النبي ﷺ وأمته، وفي سورة الفتح ينقل القرآن الكريم الصورةَ التي عرضتها الكتب السماوية السابقة للنبي وأصحابه، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وقوله تعالىٰ عن هذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويقدم القرآن بسوره وآياته سرداً لموضوعات الدعوة وقضاياها والمتعاملين معها وأنماط استجابتهم لها، عارضاً الدعوة الإسلامية باعتبارها سمة حضارية للأمة المسلمة، وضامناً أساسياً لفاعليتها الكونية، قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يعمَّكم بعذاب من عنده"[1] واستمراريتها التاريخية، فتسرد آياته البينات تتبعاً تاريخياً وتحليلاً نفسياً لحركة الدعوة في مسيرة الوجود الإنساني.

---

(١) الترمذي، أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ. **جامع الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون: بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٤، ص٤٦٨، رقم الحديث: (٢١٦٩).

وتمثل قضية التوحيد محور الدعوية الإسلامية وقطب رحاها وموضوعها الرئيس. وهو ما جعل الدعوة ترد في كتاب الله عادة باعتبارها أشرف المهام والوظائف التي تولاّها من البشر صفوتهم، وأكثرهم تميزاً في مختلف المراحل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] قال الحسن البصري عند هذه الآية: "هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله هذا ولي الله."

وتأتي السنة مُصدّقة لما أورده القرآن حول دعوة التوحيد، شارحة له، ومؤكدة عليه، وقد أشرف النبي ﷺ على تنظيم حركة الدعوة ونظام الاتصال في حياة المسلمين، فوضع لها المبادئ العامة، وفي مقدمتها "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وبنى مؤسساتها وأهمها "المسجد"، واهتم بالقائمين على أمرها، والمطلعين بمهامها. وتعكس الآثار النبوية تقديراً عظيماً لـ"لوظيفة الاتصالية" وتنويهاً بآثارها في نشر الإسلام وتنظيم حياة المسلمين، ومن الشواهد الدالة على تنويه السنة بتلك الوظيفة وبآثارها الثقافية والاجتماعية قوله ﷺ: "نضَّر الله عبداً سَمِع مقالتي، فحَفِظها ووعَاها وأدَّاها، فرُبَّ حامل فِقْه غير فقيه، ورُبَّ حامل فِقْه إلى مَن هو أفقه منه." وزاد فيه "ثلاث لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإنَّ دعوتهم تُحيط من ورائهم."[1]

نظرة منهجية على الواقع الدعوي:

إن أول استهداف كفيل بأن يُؤدي بالأمة، وينحرف بها عن مسارها، هو ذلك الاستهداف الذي يفلح في أن يصيب نظامها المعرفي، وعقليتها العلمية فتفقد البوصلة. ولعلَّ استهدافاً من هذا النوع حاضر جرَّاء عوامل داخلية تُعزز القابلية للاستتباع ضمن أنظمة الآخر المحلية والدولية، ولا خلاف أن أنظمة الإعلام والاتصال هي

(١) القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٢هـ، ج١، ص٨٤، رقم الحديث: (٢٣٠).

الأكثر مسارعة في هذا الاتجاه، ويعزز ذلك أن الأمة قد وقعت في إسارِ الاستجابة السلبية للتحدي الحضاري الذي يجسّده النموذج الغربي، وكما تهاوت البنى التقليدية لنظم الحياة العامة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أمام طوفان الاستعمار والعولمة والحداثة؛ فإن نظم الاتصال والإعلام تعرضت هي الأخرى لأضرار مَسّت الجوانب المنهجية والعلمية والإجراءات التطبيقية والعملية، وأصبح الاندماج ضمن نماذج العولمة والتحديث والمسارعة في استجلاب وتمكين تطبيقاتها وتحقيق مقاصدها هو غاية ما تبتغيه أنظمة الاتصال في البلاد المسلمة. ولا شك في أن تلك المسارعة الحثيثة والتقبل التام والاستجابة السالبة تُعبِّر عن حالة من الافتقار لمعنى الاستيعاب الإيجابي لتحولات الواقع بكامل أبعاده التاريخية والمعرفية، والتنازل لصالح النموذج الحضاري المتغلب "الغربي" الساعي لنشر وتمكين نموذجه على المستوى الدولي.

وتصبح المراجعة النقدية والدراسة الموضوعية للمعطيات المعرفية المتوفرة حول الدعوة والاتصال خطوة البدء في سبيل امتلاك رؤية، وتحديد موقف يمكن الاستناد إليه في إعادة بناء كل من دراسات الدعوة والاتصال، بحيث تصبح أصدق في تعبيرها عن وقائع الفعل التواصلي الجارية في مجتمعات المسلمين، أو التي تتم بينهم وبين الآخر.

وإذا تحدد الهدف بإعادة بناء كل من دراسات الدعوة والاتصال وتحقيق التكامل بينهما؛ مما يستدعي -لبلوغ ذلك الهدف- التنسيق في الجهود بين المؤسسات العلمية وأفراد الباحثين للاطلاع به والسعي إلى تحقيقه، وتحريك ساحة النقاش والجدل العلمي حول علم الدعوة مباحثه ومشكلاته، وأن تعرض إطاراً مفتوحاً قابلاً للتفاعل والتواصل المعرفي سواء اتخذ ذلك التفاعل صيغاً بنائية من الشرح والتوسيع والإضافة والتعديل، أو النسج على منوال منظورات متفق على كونها نماذج معيارية، أو اتخذت عملية إعادة البناء صيغاً تحليلية تفكيكية تقوم على المراجعة والتدقيق في سياق من النقد العلمي الرصين.

وهو ما يؤكد أهمية تطبيق مبادئ المنهجية العلمية على الأبحاث والمناشط الدعوية من ناحية، وتزويد الواقع بنتائجها من تطوير لمناهج الدراسة والتدريب لمتخصصي الدعوة، وتمليك للعاملين في مجال الدعوة من "دعاة وخطباء ووعّاظ" أسرار العملية الاتصالية، ومن الطبيعي أن يبدأ مثل هذا المسعى بالتعريف بصور الاتصال الدعوي في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وتأكيد "الاتصال الدعوي" باعتباره البيئة التطبيقية لعلم الدعوة في المجتمعات المعاصرة، وبيان القيمة المنهجية لدراسات الاتصال الدعوي في سياق علم الاتصال العام، باعتبار أن تلك الدراسات تمثل مظهراً لخصوصية علم الاتصال الإسلامي ومقارنة دراسات الاتصال الدعوي بما يقابلها من دراسات في مجال علم الاتصال العام مثل: دراسات الرأي العام والدعاية، ودراسات علم النفس الاجتماعي وتغيير الاتجاهات، والتعريف بالمحاولات الجارية لإزالة الجفوة وتجسير الهوة بين دراسات وأقسام الدعوة ودراسات وأقسام الإعلام والاتصال، والوقوف على التطور التاريخي لدراسات الدعوة في التراث الإسلامي، وتعرف الأطروحات والأدبيات المميزة القادرة على الإسهام في بلورة مفهوم علمي "للاتصال الدعوي".

إن الحديث عن الحاجة إلى لم شتات العقل الاتصالي الإسلامي بإعادة بناء العلاقة بين العلمين الدارسين للظاهرة الاتصالية في المجتمعات الإسلامية؛ علم الدعوة وعلوم الاتصال، لا ينبغي أن يظل اهتماماً هامشياً في جدول أعمال الباحث المسلم في مجال علوم الاتصال، وهذا الكتاب وأمثاله في دراسات الدعوة والاتصال نتيجة لرحلة جماعية موثقة من إمعان مرهق في النظر بحثاً عن التأسسات المعرفية، ومعاناة دائبة في التواصل والبحث؛ التماساً لتطبيقات منهجية تجرى في جامعات العالم الإسلامي، وتقع تحت عناوين حقول الدعوة والاتصال. ونقول من باب التعرف فقط: هذا العمل جاء خاتمة لاهتمام مزمن للمؤلف بموضوع "الاتصال الدعوي" كان ابتداؤه الاشتغال بتطبيق مقررات المنهجية الإسلامية على واقع الظاهرة الاتصالية أولاً، والممارسة الدعوية ثانياً؟ ومن ثم تطور هذا الاهتمام بتطور الأفكار عبر فعاليات علمية محلية وعالمية أتاحت في محاورها ما سمح للمؤلف بالمساهمة والمشاركة.

كان للمطالبة بإيجاد البديل الإسلامي في ميدان الإعلام -بجانبيه النظري والتطبيقي- أهمية بالغة خلال عقد الثمانينيات من القرن الميلادي المنصرم، لما تتمتع به وسائل الاتصال الجماهيرية من مكانة خطيرة في توجيه عقليات الجماهير، وتشكيل سلوكياتها في الحياة، في عالم تحول إلى "قرية كونية"، قصرت وسائل الاتصال الإلكترونية المسافات بين أجزائه، وربطت شبكةً معقدة من الاتصالات بين دوله وشعوبه، بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية كله.[1]

إن وسائل الاتصال الجماهيرية تعد اليوم الجهاز المركزي الذي يوجّه الفرد والمجتمع، ولذلك فإنَّ صياغة منهج للإعلام الإسلامي يعمل على سد الفراغ الهائل في منظومات المنهج الإسلامي ليعتبر ضرورة ملحّة، حتى يمكن بلورة أنموذج جديد للإصلاح الإسلامي يقوم على الشمول والتكامل والواقعية" كانت قضايا من مثل إشكالات الاتصال[2] في المجتمعات الإسلامية، وسبل التخلّص من مظاهر التبعية المنهجية في البحوث الإعلامية، قضايا مطروحة على الساحة الفكرية والعلمية، ومقدمات لاهتمام المؤلف بموضوع هذا الكتاب؛ إلا أن التحدي الحقيقي برز مع قيام أقسام علمية وإدراج برامج ومقررات دراسية في "الاتصال الدعوي"، ومشاركة الباحثين بتدريس تلك المواد المتعلقة بـ"الاتصال الدعوي" بذات المعالم المنهجية للاتصال الدعوي كمبحث تبدو أكثر وضوحاً.

كما أن القول بأهمية إعادة بناء علم الدعوة على أسس تعزّز التكامل والتعاطي والاستفادة المشتركة ليس ادعاءً عاماً على آي حال، فقد تأسست هذه القناعات على مسوحات شاملة للأدبيات واستقراءات جادة للتجارب والنماذج التي تُشغل أُفق

---

(١) طاش، عبد القادر. "إضاءات حول الإعلام الإسلامي"، في: **مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي**، تقديم: عمر عبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمة (٢٨)، الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٤١١هـ.

(٢) حيث كانت "إشكالات الاتصال التنموي في المجتمعات الإسلامية" موضوعاً لبحثه للتخرج على مستوى البكالوريوس.

الظاهرة الدعوية، وبما تعلّق منها بالكليات والأقسام العلمية والبرامج والمناهج الدراسية على وجه الخصوص.

وتولد الفقرات السابقة تساؤلاً لدى القارئ عن جدوى وضع كتاب منهجي، ولماذا هو في الاتصال الدعوي؟ وليس في الدعوة والإعلام أو الإعلام الإسلامي؟

وللإجابة نقول: إن الميل إلى خيار الكتاب الجامعي المنهجي والمرجعي قائم على ما يتوفر للجامعات من ذخيرة معرفية، وأطر وكفاءات علمية، وبنىً مؤسسية تجعلها الأكثر تأهيلاً للإسهام في حل المشكِل الذي توسعتُ وتعمقتُ في بيان فصوله في هذا الكتاب. ولعله من الطبيعي في البيئات الجامعية أن تتساوق عملية صياغة البرامج وتوصيف المقررات مع عملية وضع الكتب المنهجية وتأليف المواد المرجعية للتسريع بالحسم بشأن طرح تلك المقررات للدراسة في الأقسام والكليات الجامعية.

وهو كتاب في الاتصال الدعوي، وليس في الدعوة والإعلام أو الإعلام الإسلامي، لاعتبارات، منها تجاوز الثنائية والتعميم الذين يشير لهما مسمى "الدعوة والإعلام"، ولأن الاتصال الدعوي أكثر تحديداً وخصوصية من "الإعلام الإسلامي" الذي يدخل في إطار المعرفة العامة، ففي مفهوم "الاتصال الدعوي" من التخصيص، وله ما يناظره في سياق علوم الاتصال بمعناها العام، حيث نجد مباحث تحمل مسميات مثل: "الاتصال السياسي" و"الاتصال التنموي"، كما أن هناك بعض الكليات حددت مسمى "الاتصال الدعوي" كأحد المساقات التخصصية في مجال الإعلام وعلوم الاتصال.[1]

إن غاية هذا الكتاب هي الدفع باتجاه التأصيل العلمي والتنسيق المنهجي للدراسات الجارية في مجال الدعوة، بحيث تتبلور في هيئة مساق تخصصي تتكاثف أمشاجه من نواتج الحراك البحثي لعلوم ودراسات الاتصال الإسلامي. ويسعى هذا

(١) نشير هنا إلى كلية علوم الاتصال بجامعة الجزيرة في السودان.

الكتاب إلى توفير مادة مرجعية، تحتوي إعادة تعريفٍ بالعلم الدعوي وبمفاهيمه وقضاياه ومناهجه، وتطوره التاريخي، وعلاقته بالإطار المعرفي الذي يبرز من خلال الجماعة العلمية القائمة عليه، والمؤسسات العلمية الممثلة فيه.

الهدف العام لهذا الكتاب:

بناء على ما سبق، يمكن أن يتحدد الهدف العام لهذا الكتاب في تقديم مادة علمية قادرة على إبراز طرح تأسيسي لمبحث "الاتصال الدعوي" باعتباره واحداً من مخرجات التكامل المنهجي بين دراسات الدعوة ودراسات الاتصال.

الأهداف الفرعية:

- تأكيد أهمية دراسات الاتصال الدعوي باعتبارها مظهراً لخصوصية علم الاتصال الإسلامي، وبيان القيمة المنهجية لدراسات الاتصال الدعوي من بين مباحث علم الاتصال العام.
- تأكيد "الاتصال الدعوي" باعتباره مبحثاً محورياً لمباحث علم الدعوة المعاصر.
- توفير مادة مرجعية لدارسي الاتصال الدعوي في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.
- التعريف بالمحاولات الجارية لتجسير العلاقة بين دراسات وأقسام الدعوة ودراسات وأقسام الإعلام والاتصال، والوقوف على التطور التاريخي لدراسات الدعوة في التراث الإسلامي.
- مقارنة مفاهيم الاتصال الدعوي بما يقابلها من دراسات في مجال علم الاتصال العام مثل: دراسات الرأي العام والدعاية، ودراسات علم النفس الاجتماعي وتغيير الاتجاهات، والتعريف بالأطروحات والأدبيات المميزة القادرة على الإسهام في بلورة مفهوم علمي "للاتصال الدعوي".

ويكفل السير في تحقيق تلك الأهداف عبر مسار واضح، ومخطط تأسيس قاعدة منطقية رشيدة للممارسة دعوية قوامها المعرفة الأساسية بأصول الدعوة، والخبرة

العملية بشؤون المجتمع وقضايا الواقع، وهو ما لا ندعي أن هذا الكتاب قد قام به مُوفياً بحقه، وإن كان هو الاتجاه الذي تشير إليه فصوله ومباحثه تقريباً.

وتكاد الدعوة تمثل النشاط التواصلي الجوهري في الحياة الإسلامية، ومع ذلك فإن دراسات الدعوة لا تحظى بالقدر الذي تستحقه من الاهتمام العلمي والتحقق المنهجي إلا من بعض باحثي الدراسات الشرعية والدراسات الإسلامية، في حين تضرب بحوث ودراسات الاتصال صفحاً عن الموضوع؛ أصبح التعامل مع الدعوة باعتبارها مساقاً مستقلاً محل تردد، سواء من قبل الدارسين، أو حتى بالنسبة للأقسام العلمية والمؤسسات الأكاديمية غير الإسلامية.

إلا أنه لم يعد مقبولاً في ظل التطورات المعرفية والتقنية من ناحية والانتشار المستمر للظاهرة الإسلامية بتجلياتها المختلفة أن تظل دراسات الدعوة في حالة تأرجح بين الاهتمامات الثقافية العامة للجمهور، والاتجاهات الذاتية لبعض أفراد العلماء والمهتمين، مما ينبّه إلى أهمية إعادة تنظيم وتنسيق الجهود العاملة في مجال الدراسات الدعوية، وتعريف وتحديد اتجاهات التأليف والإنتاج العلمي في هذا المجال، وأنساق العلاقات الحاكمة لتواصلها مع بقية مكونات النظام المعرفي الإسلامي، بحيث تتخذ في المنتهى صيغة منهجية مكتملة البناءات معرفياً ومنضبطة منهجياً، وهو أمر على منطقيته، تكتنفه العديد من الصعوبات والتحديات، يتعلق بعضها بالبنية الهيكلية للمؤسسة الأكاديمية الإسلامية، ويرتبط بعضها الآخر بواقع الازدواجية في المناهج العاملة في الجامعات الإسلامية، وهو ما مثّل هذه المبادرة الساعية للبحث في التواصل الدعوي والتأسيس له كمدخل ضروري ومهم لمقاربة الدعوة الإسلامية من ناحية المناهج والأساليب والوسائل، وقد ظلت العلاقة بين الدعوة والإعلام محلاً للشد والجذب بين كل من تخصصات الإعلام من ناحية والدراسات الإسلامية من ناحية أخرى.

ففي الوقت الذي لم تتحمّس فيه أقسام الإعلام في الجامعات لتناول مقررات في الدعوة، مع مساهمة أساتذتها بالتأليف والتأصيل البحثي للإعلام الإسلامي ومفاهيمه

كانت الكليات الشرعية وأقسام الدراسات الإسلامية تطرح مقررات في الدعوة والإعلام، والإعلام الإسلامي، ولكنها بالمقابل تتحفظ عن إسناد تدريس تلك المقررات لمتخصصين من خارج دائرة العلوم الشرعية، وهو التجاذب الذي ترك أثره على التكييف المنهجي لمقررات الدعوة والإعلام تبعاً لاختلاف المنظور بين التخصصين.

ومع تنامي ظهور كليات تجمع في منهاجيتها بين الدعوة والإعلام مثل: كلية الدعوة والإعلام في جامعة الإمام محمد بن سعود، وكلية الدعوة والإعلام في جامعة أم درمان الإسلامية، وكلية العلوم الاجتماعية في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، وكلية علوم الاتصال في جامعة الجزيرة بالسودان، كانت الاختلافات في الخلفيات التخصصية والمرجعيات العلمية بين الطرفين سبباً في الحيلولة دون تحقيق التفاعل الضروري بينهما؛ وبقيت أقسام الدعوة في هذه الكليات تعمل وفق المنظور المنهجي للدراسات الإسلامية، بينما ظلت المنهجية الإعلامية - ذات الجذور الغربية- هي الحاكمة على أقسام الإعلام والاتصال، فتم التراجع عن ذلك المنظور التكاملي في المناهج المطورة في جامعات الإمام محمد بن سعود وأم درمان الإسلامية، وكلية علوم الاتصال بنسب متفاوتة؛ حتى إذا بقيت بعض المسمّيات على تلك العلاقة على نحو ما حدث في كلية علوم الاتصال التي استحدثت قسماً للدعوة ونظم الاتصال، إلّا أن التجربة انتهت إلى أن يعمل كل أصحاب تخصص في قسم مخالف لأصحاب التخصص الآخر.

وهذه ملامح عامة تحكي عن واقع العلاقة المراد تجاوزه بين تخصصات الإعلام وتخصص الدعوة في الجامعات الإسلامية دون إسقاطات لاحتمالات أن تأتي مثل هذه الإشكالات لتوجهات بيروقراطية، وإشكالات متعلقة بالإدارة العلمية، حيث نجد أن ذات الأمر يحدث في الكليات التطبيقية التي تدرس موادّ إعلامية واتصالية، وسنتبين من خلال فصول الدراسة ما إذا كان للعوامل المعرفية أثر في ذلك، وهل لطبيعة التكوين المعرفي لكل طرف مساهمة في الموضوع، وهل المحتوى المنهجي والمادة المرجعية التي يتم تدريسها في كلا التخصصين تتسم بالتقابل والانتماء إلى جذور

معرفية متشاكسة بطبيعتها، أو لا تتسق مع روح التكامل والتفاعل الخلاق الذي عبرت عنه الفلسفة التي تأسست عليها تلك الكليات.

الحاجة إلى علم الدعوة:

العلم في اللغة: هو إدراك الشيء بحقيقته، وعلم الدعوة اصطلاحاً كما يعرفه البيانوني هو: "مجموعة من القواعد والأصول التي يتوصل بها إلى تبليغ الإسلام للناس وتعليمه وتطبيقه."[1]

وقد بين الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضرورة العلم للدعوة في عبارة قصيرة دقيقة، فقال: "وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلّها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حدّ يصل إليه السعي."[2]

ومع ذلك يكاد الحديث عن علم الدعوة يكون أمراً مجازياً، أكثر منه تعبيراً عن الواقع الفعلي للمناهج والدراسات الدعوية التي لم تكتسب صفة العلم المستقل بهويته والاكتفاء بذاته بعد، فرغم أن الدعوة هي وظيفة المسلم الأساسية في الحياة -بدلالة العديد من النصوص- ورغم أن المسلمين قد أهدوا البشرية تجربة حضارية متميزة، وما تزخر به حضارتهم من علوم ومعارف متقدمة في مجال الدين وضروب الحياة المختلفة، إلا أن العلوم الإسلامية لم تشهد بروز علم راسخ في مجال الدعوة، يمكن أن يقارن مثلاً بعلوم القرآن أو الفقه أو الأصول أو حتى علوم الفلك والطبيعة، وفقدان هذا العلم أورث التجربة الدعوية مشكلات جَمّة، منها: اختلاط مفهوم الدعوة بغيره من المفهومات، مثل: الإعلام، الوعظ، الإرشاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحوّل المسلم الذي كان ينبغي أن يصبح قائماً بالدعوة إلى هدف لها، كما أن اعتبار مجموعة من المسلمين؛ أنهم وحدهم الدعاة وبقية المسلمين هم المدعوين جعلهم

(١) البيانوني، محمد أبو الفتح. **المدخل إلى علم الدعوة**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩١م، ص٤١.

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **مفتاح دار السعادة**، جدة: مجمع الفقه الإسلامي، ١٤٣٢هـ، ج١، ص١٩٥.

ينظرون إلى الفئة المدعوة باعتبارها خارج الدائرة المسلمة "الملّة" وبرفضها "لدعوتهم" نظروا إليها باعتبارها خارجة عن الدين، وهذا أورثنا فكر التكفير والإخراج عن الملة، وعدم انشغال المسلمين بالدعوة، فضلاً عن أنه فوّت عليهم أجراً عظيماً أفقدهم فرصة تكثير سوادهم بمسلمين جدد، وجعلهم هدفاً لدعوات الملل والنحل الأخرى، فالإسلام الذي شهد سرعة انتشار في عهود كانت وسائل الاتصال فيها متخلفة، لا يشهد -اليوم- انتشاراً بنفس القدر، في عالم تشهد الاتصالات فيه كل يوم فتحاً جديداً. كل هذا وغيره يجعلنا بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في فهمنا للدعوة ومناهجها وأساليبها، بل يجعل الحاجة ماسة إلى تدوين علم واضح المعالم باسم "علم الدعوة" أسوة بالعلوم الأخرى.

لقد أصبح من الضروري أن يتم التعبير عن حقيقة التقارب في طبيعة الطرح وطريقة المعالجة للمقولات والمسائل المتعلقة بالإعلام والاتصال من ناحية، والدعوة لا باعتبارها مقرراً منهجياً وتخصصاً أكاديمياً فحسب، بل باعتبارها ممارسة جوهرية في بنية المجتمعات الإسلامية، وهو ما تقتضيه إلى جانب ما سبق دواعي التجويد والنمو والتطور الطبيعي لهذه المقررات، إلى جانب رغبة القائمين على حقلي الدعوة والاتصال في إكساب معالجاتهم لمحتوى تخصصاتهم مزيداً من إحكام التنسيق بين حدود المعرفة النظرية وامتداداتها التطبيقية في التجربة التاريخية للمجتمعات الإسلامية.

ولا يكتمل تصور العلم بما هو "منظومة من الوقائع والنظريات والمناهج" ما لم يتم تمثيل تلك المنظومة في منتج معرفي يتسم بالتحديد والشمول في ذات الوقت، وغالباً ما يتخذ هذا المنتج شكل الكتاب المرجعي، أو المنهجي، أو كتاب القراءات، أو تجميع الأدبيات، وغير ذلك من أشكال التأليف العلمي، وهو ما حدا بنا إلى العمل على إخراج هذا الكتاب.

وتفترض هذه المقدمة أن التكامل المنهجي بين دراسات الاتصال ودراسات الدعوة كفيلٌ بإخراج مساق علمي جديد، موضوعه الأساس هو "الاتصال الدعوي"،

وأن هذا المساق قادر على أن يمثل المحور الرئيس في إعادة تأسيس علم الدعوة وتفعيله في واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وهو التأسيس الذي يرجى له أن يعيد توجيه اهتمامات البحث والدراسة في حقلي الدعوة والاتصال معاً.

أولويات الجماعة العلمية:

تتأسس الحاجة إلى "الجماعة العلمية" في أي مجال من المجالات على الاعتراف بمحدودية الأفق المنهجي للفرد تبعاً لإمكاناته العلمية، وفي مجال الاتصال الدعوي بانحصار فاعلية التفكير الفردي أو التخصصي في نطاق حدود قدرة بعض الأقسام العلمية، أو الدوائر التخصصية وقصورها عن الإلمام بظاهرة واسعة النطاق مثل ظاهرة الدعوة.

ولعل المطلوب لتسويغ الدعوة لقيام هذه الجماعة العلمية توفر معطيات ذلك من وجود الأقسام العلمية، والتقاليد البحثية، والمجلات العلمية، وهو أمر متحقق فيما يتعلق بالدراسات الدعوية التي لم تتبلور عن علم مستقل وتخصص قائم بذاته، مما جعلها تجذب إليها كل المهتمين والممارسين من الأكاديميين والناشطين الاجتماعيين، لتتراكم تجاربهم وتتعاضد إسهاماتهم للتوسل لتأسيس العلم الدعوي، مع وجود قدر معقول من المادة المنهجية والمقررات والبرامج الدراسية، والأقسام والكليات العلمية، والكادر التدريسي والبحثي، والاهتمامات العلمية المتداخلة والمشتركة بين الدعوة والاتصال، وعدد من التخصصات الأخرى؛ أي باختصار معظم المسوغات التي قامت عليها الجماعة العلمية في مجال علم الاتصال كما أشرنا في الفصل الأول.

مما يعني أن السعي لقيام بذرة ونواة لجماعة علمية جادة في مجال الاتصال الدعوي وفروع علوم الدعوة والاتصال هدفٌ قابلٌ للتحقيق؛ لتصبح الوظيفة العملية لتلك الجماعة هي القيام على بناء تصورات عملية لتطوير الواقع باتجاه بناء أساس معرفي متماسك يصلح لأن يكون قاعدة لممارسة دعوية رشيدة، وتتسع نطاقات عمل تلك الجماعة العلمية لتنتشر جغرافيا على أفق القارات الخمس، وتقوم بتعريف موضوعات

عملها ووضع خريطة أولويات الدراسات الدعوية تقوم على مركزية البعد التواصلي في الدعوة وجوهرية الاهتمام الدعوي في الاتصال في البيئات الإسلامية، وتعيين نقاط اهتمام بحثي على ضوء معايير منهجية متعلقة بعلمي الدعوة والاتصال، واهتمامات الفعاليات النشطة ومراكز البحث العلمي والأكاديمي المؤثرة.

لقد سعى هذا الكتاب بأبوابه الأربعة، وفصوله التسعة: لتحقيق أهداف عامة تمت الإشارة إليها في التمهيد السابق، والتأسيس منهجياً لدراسات الاتصال الدعوي، جاعلاً من التكامل المعرفي مدخلاً لمقاربة مفاهيم الدعوة والاتصال، معتبراً الدعوة مفهوماً اتصالياً لا يندّ في طبيعته عن المفاهيم العامة للاتصال الإنساني، ويتخذ موقعه مكوناً جوهرياً في شبكة مفاهيم الاتصال في البيئات الإسلامية، ومن ثم تشكّلت العلاقة بين الدعوة والاتصال من حيث المفاهيم والمنهجيات، وكان طبيعياً اللجوء إلى مبدأ التعريف كصورة من صور التأسيس لمفهوم "الاتصال الدعوي" الذي لم يجد من المعالجة والاهتمام ما وجدته مفاهيم سلطوية مثل: الدعاية ومفاهيم ليبرالية مثل: الرأي العام، ومفاهيم اشتراكية مثل: الهيمنة الاتصالية والإمبريالية الإعلامية، فالتكامل المنهجي بين الدعوة والاتصال مطلبٌ يعمل في سياق مبدأ التكامل المعرفي الحاكم في مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويتأسس على واقع من العلاقة بين علم الاتصال وجملة من العلوم الأخرى.

لقد حاول الباب الثاني من هذا الكتاب تقديم نموذج أولي وأطروحة ابتدائية لا بد منها لتوجيه بوصلة التأصيل النظري للاتصال عموماً وللاتصال الدعوي بخاصة، ويقصد بالتأصيل هنا البناء على الأسس القرآنية للمعرفة في إخراج نماذج ومقاربات نظرية لشرح وتفسير الأوجه المختلفة لظواهر الاتصال الدعوي. والتأسيس المعرفي القرآني شرط في نظريات الاتصال الدعوي للبعد الديني المتضمن في العملية الدعوية في جانبها الروحي والتعبدي، وجانبها الشعائري والنُسكي، وارتباط ذلك بجملة من الأبعاد الوجودية والحضارية للاتصال التي يمثل القرآن فيها دور الشاهد والموجّه في

ذات الوقت، شاهد من حيث تصديقه وهيمنته على التراث التوحيدي في تاريخ البشرية، وموجّه عبر ما يطرحه من مبادئ ومرتكزات للتواصل الإنساني.

فجاءت فصوله بياناً لخصائص الرؤية القرآنية والهدي النبوي في الاتصال الدعوي، وإعمالاً لخلود مقام االنبوة الخاتمة للرسول محمد ﷺ وفاعليته التاريخية، عبر مبدأ الاستخلاف الذي منح أمة الإسلام استدامة رسالتها الدينية واتصال شهودها الحضاري؛ مما يؤكد أهمية دراسات السنّة والاتصال في صياغة معالم الرؤية التواصلية المنشودة، وترشيد وتنظيم حركة الاتصال الدعوي على ما يعترضها من عقبات ويكتنفها من تحديات.

ومن نواتج تثوير المحتوى القرآني وتتبع الأثر السني تتشكّل المرتكزات الرئيسة والملامح العامة للإطار النظري للاتصال الدعوي، وتتكشَّف أهم معالم وخصائص النظرية الاتصالية، كما يتحدَّد بوضوح موقع الاتصال الدعوي بين موضوعات ذلك العلم، وموقفه من نظرياته. وهو ما دعا إلى استرجاع نماذج من نظريات التأثير ونظريات تغيير الاتجاهات، وما يماثلها من نماذج للنظرية الاتصالية باعتبارها مكاناً تتجلّى من خلاله النظم والفلسفات التي تولد منها الفكر الاتصالي المعاصر. وقد انتهى هذا الباب إلى جملةٍ من المحدّدات الفلسفة والأيدلوجية اللازمة لقيام نظام للاتصال الإسلامي؛ مما استدعى تأكّد الوعي التام والمعرفة الدقيقة بحقيقة الفعل الاتصالي الذي غدا موضوعاً في الباب الذي يليه.

وتأسيساً على ما سبق، جاء البابُ الثالث مهتماً بالجوانب العملية للاتصال الدعوي، مستنداً في ذلك على التعريف بالفعل الاتصالي في سياق الدعوة الذي ألبسه الكتاب صيغة "الفعل الدعوي" المفهوم الذي يشتمل بعدين؛ اتصالي واجتماعي، اتصالي: من حيث إن أركانه هي ذاتها العناصر الأساسية للعملية الاتصالية، واجتماعي: لأنه خاضع في وجوده وتفاعله لكل شروط وقوانين وضوابط الفعل الاجتماعي، وهو في طبيعته يجري على مستويات الاتصال بتراتبها المعلوم، وميادين

الفعل الدعوي بوجوهه المتباينة، والفعل الدعوي فعلٌ قاصد؛ مما فتح الأفق للتعريف بمقاصد الاتصال الدعوي ووظائفه، وما يرتبط بها من مبادئ عملية وقواعد تطبيقية.

ويبلغ هذا العمل ختامه في بابه الرابع حول الاتصال الدعوي في أنظمة التعليم بالتعريف بالمنهج الجامعي، والوقوف على تجارب الجامعات، ومحاولاتها المنهجية تكييف أوضاع الاتصال الدعوي، وإنشاء كليات وأقسام للدعوة والاتصال، كما سعى للتعريف بالبحوث الجارية في مجال الاتصال الدعوي، طبيعتها واتجاهاتها، وقدَّم نماذج لمشروعات بحوث ارتيادية في مجالات الاتصال الدعوي.

الباب الأول

التأسيس المنهجي للاتصال الدعوي

مقدمة:

يسعى هذا الباب للتعريف بالأسس المنهجية للاتصال الدعوي، وذلك من خلال التعريف بمفهومي الدعوة والاتصال، وتحديد موقع "الاتصال الدعوي" على خريطة مفاهيم علوم الاتصال الإسلامية، كما يعرض "الاتصال الدعوي" باعتباره صيغةً للتكامل المعرفي بين كل من هذين العلمين؛ ليصبح مساق الاتصال الدعوي بهذا المعنى مجالاً للدراسات البينية بين كلٍّ من علم الدعوة وعلوم الاتصال.

ومع التسليم ابتداءً بأصالة مفهوم الدعوة إسلامياً؛ فلن ننكر أن مفهوم الاتصال يعرض باعتباره أحد نواتج الفكر الغربي ما يستدعي تحرير العلاقة بينه وبين الرؤية المنهجية الإسلامية، وتفكيك حالة الاغتراب التي تتسم بها دراسات الاتصال، والتي سرت حتى أفقدت الباحثين والمؤسسات العلمية العاملة في حقل الإعلام والاتصال في البيئات الإسلامية، ما يميزهم من استقلالية في الرؤية والمنهج، وأصبحت مجرد نماذج مستنسخة من الاجتهادات والمؤسسات، وهو ما أدى إلى غياب مفاهيم تواصلية مركزية في المجتمعات الإسلامية، وخير الامثلة لذلك مفهوم "الدعوة" عن دوائر التخصصات الإعلامية والاتصالية؛ الوضع الذي حفّز إلى الشروع في استحداث قراءة تأصيلية للفكر الاتصالي المتهم بالاغتراب المعرفي، وتمكين الأكاديمي المسلم من اكتشاف رؤيته، وتحديد موقعه بين خطوط الخريطة العامة لبحوث ودراسات الاتصال. وتعيين الاتصال الدعوي بين مباحث هذا العلم؛ مما يجعلنا نواجه احتمالين حتميين؛ إما أن نقوم بقراءة دعوية للفكر الاتصالي تستند إلى المتوفر من أدبيات فقه الدعوة والمساعي الجارية في تقنين الدعوة، كعلم مستقل، أو نقوم بعمل مخالف، ونقرأ الظاهرة الدعوية من منظور علم الاتصال الذي يبدو أسبق في التقنين لنفسه، حتى داخل الجامعات الإسلامية نفسها.

وقد قررنا هنا المزاوجة بين المبدأين، وأن يكون مبتدأً النظر في أصول الظاهرة الاتصالية في القرآن الكريم؛ مما يساعد في تقديم بدائل على مستوى الرؤى الكلية الضرورية للتأسيس لجزئيات العلم الاتصالي، وتسعى تلك القراءة لأن تُسهم في تخليص العقل الإسلامي المعاصر من الارتهان للتصور الأحادي للمعرفة، ولا معنى من بعد ذلك؛ لأن نقول أن دراسة (دوفلور روكاخ) التي سبقت الإشارة إليها تنطلق منذ لحظتها الأولى من التصور (الداروني) للنشوء والتطور، -ويا للأسف- نجد أن بعض ما أُنجز في مجال النظرية من داخل "جامعات العالم الإسلامي" ينطلق من ذات النقطة.[1]

وبعد القراءة الاستقصائية للمحتوى التواصلي في الوحي القرآني نثني باستجلاء معالم النشاط الاتصالي في التجربة النبوية، وهي خطوة مكمّلة للخطوة السابقة، ومتأسسة عليها، فقد مثّلت التجربة النبوية واحدة من أنجح التجارب الاتصالية في التاريخ الإنساني، وهو أمرٌ كما صدَّقته شواهد تاريخية، شهد به جملةٌ من العلماء والفلاسفة من المسلمين وغير المسلمين؛ مما يعني أن إغفال هذه التجربة النبوية في مجالات الدعوة والإقناع من قبل أي مدرسة أو مذهبية فكرية يقدح في علميتها، ويُفقدها تجربة من أثرى تجارب الاتصال الإنساني.

ولا يُغني ذلك عن دراسة التجربة التاريخية للمجتمعات الإسلامية في مجال الاتصال والتواصل الإنساني، وينبغي لنا هنا تذكّر ما حقّقه المسلمون من نجاح في ترجمة ونشر أقدم التنظيرات الإنسانية المكتوبة في مجال الاتصال الإنساني، المتمثلة في محاورات أفلاطون، وكتابات أرسطو في المنطق والخطابة، والتي تُعدّ أول نظام يوضِّح قوانين التواصل العقلي، ويفسِّر حدوث الفهم المشترك بين أناسٍ تفصل بينهم الجغرافيا والزمان والبيئة والتجربة الإنسانية.

---

(١) شمو، علي محمد. **أساسيات الاتصال ومهاراته**، الخرطوم: منشورات جامعة السودان المفتوحة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٢٠.

كان الكشف عن "منطق أرسطو" من قبل علماء المسلمين فتحاً معرفياً كبيراً جاء في سياق الاهتمام بفلسفته وترجمة وتحليل مقولاته، أما كتاب أرسطو في البلاغة والخطابة، والذي ترجع إليه معظم كتابات التنظير الاتصالي المعاصرة، باعتباره السفر الذي وضع المقولات الأولى في هذا المجال؛ فإن قصة إهماله لا تزال تحتاج إلى مزيد من البحث والتقصّي، غير أن ما لا خلاف فيه هو أن ترجمة المسلمين له هي ما حفظ له البقاء حتى زماننا الحالي، ولعلها السبب في اقتراح ذلك النوع من المعرفة الذي ابتدأ بالخطابة، وانتهى إلى علم آخذ في التكون هو علم الاتصال.

والحديث هنا ليس عن سبق لصالح حضارة الإسلام والمسلمين يستحق أن يحفظ في سجل الإنجاز، بل عن توفر الإمكان في استئناف مسيرة الإسهام في تطور وإعادة بناء المعرفة الإنسانية.

وبإزاء التيه الاتصالي وقلة المنتج الإسلامي في مجال التأطير النظري للممارسات الاتصالية، والذي جاء متأخراً جداً كاستجابة للتحديات الخارجية أكثر منه استجابة لحاجات ظرفية تتعلق بالبيئات الإسلامية فلا بد لدراسات الاتصال الإسلامي لسد فجوة التنظير الاتصالي من أن تبرز الجهود والاجتهادات السابقة، مع تكثيف المراجعات النقدية لنظريات الاتصال السائدة، والنظر في تراث المعرفة الإنسانية في الاتصال بفروعه المختلفة، مع إعطاء المقابلة بين المنطلقات الفكرية للرؤية الاتصالية في كل من النموذجين الإسلامي والغربي الأولوية في البحث، ومن ثم الاتجاه إلى دراسة المآلات المتوقعة لكل نموذج. يلي ذلك الاهتمام بالنظر في تراث التجارب الإنسانية الأخرى، ودراسة مدى تقاربها أو مفارقتها لمحددات الرؤية الإسلامية، وأن يتم ذلك مع الاستحضار الدائم لأهمية أن يكون للأمة نظامها الاتصالي الفاعل، الذي يُعبِّر عنها ككيان حضاري له إسهامه في التاريخ الإنساني، ولا يزال يمتلك القدرة على الإسهام في حل معضلات التواصل الإنساني، ومسيرة الوجود البشري.

الفصل الأول:

مدخل إلى تكامل مفاهيم الدعوة والاتصال

يتنامى الجدل حول مفهوم الاتصال بين الدراسات الغربية المولَّدة للمفهوم والمؤسسة له، والدراسات العربية التي اكتفت في تعاملها معه بترجمته إلى العربية، تارة بالاتصال وأخرى بالتواصل؛ لينعكس ذلك على التعريف العام للاتصال الإنساني، كما يُسفر عن حاجةٍ ملحّة لتكييف العلاقة بين الدعوة والاتصال، وتقديم تعريفٍ جامع ومانع للاتصال الدعوي، وهو غاية ما يسعى هذا الفصل لتحقيقه.

لذا وبقدر ما تبدو الدعوة لأول الأمر مفهوماً يسيراً سهل التعريف، واضح الدلالة، بيِّن الحدود، لكنها سرعان ما تزداد تعقيداً وغموضاً حال اقترانها بمفهوم الاتصال. فهل لكون الاتصال الدعوي نشاط -يقوم به المسلمون غالباً- دور في ذلك؟ بحيث يكون للدعوة دلالة عميقة الأثر وجدانياً، وواضحة المعنى لُغوياً، وإن بدا بعض العجز في تعريف الدعوة إلا أن التعامل معها كمفهوم يكون أسهل بكثير من التعامل مع مفهوم وافد ووارد كمفهوم الاتصال، وهو ما اضطرَّنا إلى التوسُّع في معالجة المفهوم،[1] والتعمُّق في تحصيل دلالته العلمية، قبل الذهاب إلى إحكام صياغة تعريفنا للدعوة، ومن ثم "للاتصال الدعوي"

ولا شك في أن التعمُّقَ في دراسة الدعوة كظاهرة اتصالية، ومحاولة تقنينها منهجياً والسعي باتجاه جعلها تخصصاً دراسياً قائماً بذاته سيولد بدوره جملةً من المفاهيم الإضافية، وحينما يحدث تنظيم واتساق بين تلك المفاهيم اليسيرة تنتج مفاهيم كلية تؤلف فيما بينها النظام المفهومي للاتصال الدعوي.

والحديث حول الاتصال الدعوي هو من جانب حديث عن الدعوة في سياقها المعاصر وحديث عن الاتصال في سياقه الإسلامي، ما يعني أن ضعف الوعي بأحد

---

(١) العوض، محمد بابكر. "الإعلام والمعلومات الاتصال والتواصل: إشكالية المفهوم في بحوث الاتصال العربية"، **مجلة الإذاعات العربية**، تونس: اتحاد إذاعات الدول العربية، العدد (١)، ٢٠١١م، ص٩٩.

طرفي المفهوم سيكون له ذات الأثر في تشويه الرؤية المترتبة عليه؛ لعلاقة الدعوة والاتصال كظاهرة برؤيتنا للاتصال الدعوي كحقل معرفي وتخصص علمي، وقد ظل الوعي قائماً بخطورة سوء الفهم للمبادئ الأساسية والمعارف الأولية المتعلقة بتلك الأنشطة والممارسات، ولعل بعضهم يميل إلى أن يكون التعامل مع الممارسات الإسلامية تعاملاً نمطياً دون تقعيد، فتأتي أشكال الممارسة منحصرة في قوالب تقليدية صارمة في حكمها للشكل والمضمون معاً، ولعل أكثر أوجه الحياة الإسلامية تأثراً بذلك هو حقل الدعوة، فتخندقت بعضُ الجماعات في أشكالٍ من التواصل الدعوي لا تبرحها، مهما تقلَّب بها الزمان، أو تغير المكان؛ ليصبح نمط الاتصال المباشر في منهجها هو الأسلوب الأوحد للدعوة إلى الله، بينما توسعت فئات أخرى وانفتحت على توظيف كل أشكال التواصل لمصلحة الدعوة، حتى برز الخطاب الدعوي أحياناً في قوالب باطنها فيه الدعوة، وظاهرها من قبله الاستلاب نحو أنماط الحياة المادية في أسوأ نماذجها؛ "النموذج الاستهلاكي". إن تفريغ الممارسة الدعوية من محتواها المعرفي وبعدها القيمي وصبها في قوالب إعلامية وتقنية جامدة يحيلها إلى استعراض سخيف.

وفي سياق المقاربة المنهجية لهذا الموضوع يتولّد سؤالان جوهريان، هما: هل هناك ضرورة منهجية تستدعي البدء بتحليل المفاهيم؟ وهل الدعوة في حقيقتها مفهوم اتصالي؟ وهما ما سيبدأ هذا الفصل بالإجابة عليهما، ثم ينطلق لتحرير الجدل حول مفهوم الاتصال في السياقين الغربي والعربي، ليخلص إلى التعريف العام للاتصال يصلح مقدمة لما يليه من توصيف للعلاقة بين الدعوة والاتصال.

أولاً: الدعوة بوصفها مفهوماً اتصالياً

تتميز المفاهيم العلمية بأنها تمثّل الوحدات الأولية للنظريات المكونة للرؤية المنهجية، المنبثقة بدورها عن الرؤية الكلية للنسق الحضاري التابعة له، ومن ثم فهي بالضرورة على انسجام منطقي -أو ينبغي لها أن تكون- على انسجام مع منطلقات تلك الرؤية، وأن تُسهم تبعاً لذلك في تطوير وابتداع تجريدات لفظية مبتكرة، قادرة على التعبير عن خصوصية الواقع الاتصالي الذي تصدر عنه.

وفي إطار جدل الأنساق الحضارية والرؤى الكلية، يصبح طبيعياً أن تتباين المفاهيم المعبرة عن الظاهرة الواحدة، ومع أن الدراسة تأتي في سياق البيئة العربية الإسلامية؛ فإنها تصبح معنية في المقام الأول بتحليل الصعوبات التي يمكن أن تعترض عملية تفعيل مفهوم الاتصال الدعوي في هذه البيئات، لكنها تستصحب في ذات الوقت البعد العالمي الإنساني، والبعد الوجودي الكوني خلال معالجة قضايا الاتصال.

إن غاية هذا الفصل هي بيان الموقع الذي يحتله "الاتصال الدعوي" من خريطة مفاهيم العلم الاتصالي، وتخليص المفهوم من بعض الإيحاءات التي تسقطها عليه طبيعته باعتباره مفهوماً دينياً في جزء من تركيبته، أو لكون الاتصال الدعوي مزيج بين مفردة معاصرة وأخرى تراثية، مفردة وضعية وأخرى شرعية، وبيئة للمقابلة بين مفهوم إنساني وآخر قرآني، وهو وضعٌ حريٌّ به أن يُثري المفهوم ويعمّقَه، ولكنه وبسبب من ضعف البناء المعرفي لعلوم الاتصال في المحيط الإسلامي أصبح مدخلاً للإشكال، وسبباً لتجشم هذا النوع من محاولات التأصيل.

إن أهم ما ننطلق منه من قناعات أن تلك الثنائية تجعل من المحتمل التفكير في الاتصال الدعوي باعتباره فعلاً اجتماعياً معبراً عن واقع الحياة اليومية والعلاقات القائمة بين مكونات الاجتماع الإسلامي، في ذات الوقت تجعل من الممكن في كثير من السياقات الإعلامية التعامل معه في حدود الشعائر الدينية؛ كالآذان للصلاة، والخطبة للجمعة والعيدين، ومناسك ومشاعر الحج والعمرة، وغيرها من مظاهر الحياة الإسلامية التي تتجلّى عن طريقها الدعوة في سياقات الإعلام والاتصال. من ناحية أخرى وعلى وضوح الدلالة اللغوية لمفهوم الدعوة فلا غنى للدارس من العودة إلى قواميس اللغة ومعاجمها لتعرف المادة الأولية للمفردات والمعاني الأصلية للكلمات، والانتقال بعد ذلك إلى الاستخدامات الاصطلاحية للمفهوم.

وتتأثر شبكة مفاهيم الاتصال بالمرجعيات التي تحكم المنظور المعرفي الذي تصدر عنه، فعند حدوث تغير في الأنساق القيمية تبعاً للتباينات الحادثة بين الأقاليم المختلفة

سياسياً أو ثقافياً أو دينياً، تحدث تغيراتٌ مباشرة في شبكة المفاهيم المعيارية، بحيث يتم إضافة مفاهيم جديدة، أو إبعاد بعض المفاهيم، أو التركيز على بعضها بالمقارنة مع المفاهيم الأخرى.[1]

من الأفضل دائماً قراءة المفاهيم في سياقاتها الطبيعية، إلا أن حدود الدراسة تفرض علينا تحديد نطاقات حاكمة لمنهجية تعاملنا مع تلك المفاهيم، لذلك فإننا نختار التعامل مع المفهوم في إطاره الأكاديمي الوظيفي، وقد حاولنا التعامل مع المفهوم في أطر استخداماته الوظيفية في نطاق التجربة الأكاديمية، والخبرة البحثية العربية الإسلامية، دون إهمال للعوامل اللغوية والمعرفية والثقافية، التي يكون لها إسهام مباشر في هذه العملية، مركّزين في ذلك على تحليل أهم المحاولات التي جرت لتعريف الاتصال، مستصحبين الأسئلة التي تفتح الأفق، وتمنح لمثل هذه المعالجة، وأهم تلك الأسئلة:

هل تعبِّر مفاهيم "علم الاتصال العام"[2] عن واقع الظاهرة الاتصالية في المجتمعات العربية والإسلامية بصورة دقيقة وشاملة؟ وهل تهتم علوم الاتصال في البلاد العربية والإسلامية بمعالجة تجليات الظاهرة الاتصالية في تلك المجتمعات؟ ما مدى قابلية هذه العلوم على ضوء ما تعرضه مفاهيمها لاستيعاب الأنشطة الاتصالية

---

(١) وجدنا على سبيل المثال أن المفاهيم مثل: الإعلام، الاتصال، الرأي العام، الدعاية، التدفق الحر، البث المباشر، الجماهيرية، الاتصال الجماهيري، الثقافة الجماهيرية. إن مثل هذا المسرد الذي أمامنا يشير إلى بنية العلم الغربي (المنظومة الرأسمالية)، وعندما نجد تركيزاً على مفاهيم مثل: الهيمنة الاتصالية، والتضليل الإعلامي، والثقافة العمالية، والدعاية، فلن نشك في أن هذه المفاهيم ترد في سياق اشتراكي. أما الحديث عن الحياد، والموضوعية، والتدفق المتوازن للمعلومات، والتنمية، والحوار الحضاري؛ فينبهنا إلى نسق مختلف، ونحن هنا بصدد قراءة المفاهيم في سياقاتها الموضوعية، دون عزل لتلك المفاهيم من سياقاتها، أو تأطير لها وفق أي دوغما أو أيدولوجيا، دون أن نستبعد أن محاولة التخلص من الأثر الأيدلوجي قد يتضمن هو الآخر موقفاً أيدولوجياً.

(٢) المفهوم (علم الاتصال العام) مستعار من ريجيس دوبرييه، ونقصد به: علم الاتصال غير المخصص في بيئة الاستخدام العربية الإسلامية.

الجارية في هذه المجتمعات؟

تحتاج الإجابة عن هذه الأسئلة إلى المقارنة بين المفاهيم الإعلامية المتداولة في كل من النسقين الغربي الذي نشأ فيه هذا العلم، والإسلامي الذي يحاول الاستفادة مما استورده من نظريات ومفاهيم، في مناظرة بين المفهوم العلمي المعتمد "غربي المنشأ" وما يناظره من واقع علمي في البيئة الإسلامية.

نظراً لحداثة العلم الاتصالي من ناحية، ونشوئه في بيئة مغايرة ساهم في اغتراب مفاهيم ومصطلحاته، كما أن ضعف الاهتمام بالبحث الاتصالي والإعلامي في البلاد العربية الإسلامية[1] غيّب المفاهيم التواصلية المتداولة إسلامياً عن ساحة البحث والنظر الاتصالي، الأمر الذي يُعلي من أهمية التأصيل النظري للمفاهيم الإعلامية والاتصالية، دون أن نعزل المفهوم الاتصالي الإسلامي عن السجالات المعرفية الجارية حول الاتصال الإنساني وظواهره، ونحرمه من الظهور في سياق من التعددية الثقافية والحضارية والمنهجية. إن هذا العزل كفيل بإضعاف المفهوم وتقليص حدوده التداولية، وربما انتهى به إلى الإزاحة والتجاوز.

ولعل من المشروع في التعامل مع المفاهيم نقد المفهوم وتفكيكه، وتحديد الدواعي الأكاديمية والمنهجية والعملية لإعادة النظر فيه أو تجاوزه، وهو أمر لا يتعلّق بالمفاهيم الوافدة وحدها، وربما يكون شيئاً من ذلك قد حدث مع مفهوم الإعلام الإسلامي الذي كان مفهوماً انتقالياً، طوَّر التفكير العلمي الإسلامي في قضايا الإعلام، وهيأ الطريق لمفاهيم تخصصية أكثر تحديداً، وأدق تعبيراً عن جزئيات الظاهرة الاتصالية.

وذات الأمر ينطبق على مفهوم غربي كمفهوم "الدعاية" الذي بدأ مفهوماً وصفياً محايداً خلال القرن الميلادي التاسع عشر، حتى ألقت عليه فترة ما بين الحربين مجموعة من الظلال المعرفية والتاريخية والأيدلوجية، زاد عليها التمركز العلماني في بيئات العلم

(١) العوض، محمد بابكر. "أصول الظاهرة الاتصالية في القرآن الكريم"، **مجلة تفكُّر**، المجلد (٧)، العدد (١)، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

الغربي، بما تبديه من حذرٍ في التعامل مع المفاهيم ذات الجذور الدينية والإثنية، مما انتهى بمفهوم الدعاية إلى هامش الاهتمامات العلمية، ولعل مفهوم الإعلام يمرُّ في وقته الراهن بظروف مماثلة، وهكذا يمكن فهم دورة حياة المفهوم، وأثر الظروف والعوامل المحيطة على استخداماته.

١ - الجدل حول مفهوم الاتصال:

في خضم هذا الاهتمام الذي شغل ما يقارب العقود الثلاثة التي مضت، تركَّز الفهم في تعريف الاتصال للجوانب التكوينية للممارسة الاتصالية، وأعطيت الأولوية لها وقد انشغلت النماذج الاتصالية الأولى وركَّزت جهدها في محاولة الإجابة عن سؤال: كيف تتم عملية الاتصال؟ ما هي المناحي التي يمكن التمييز بينها في هذه العملية؟ ما هي العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين هذه العناصر في نهاية الأمر؟

ثم جاءت ثورة التطورات التقنية الاتصالية الحديثة، التي أدت إلى تركيز الاهتمام العلمي على مفاهيم الاتصال والمعلومات، كما مهّدت الثورة التقنية لحدوث التقاء جديد بين "الإعلام والاتصال والمعلوماتية"، وهو ما سنحاول تفحّصه عبر ما يأتي من صفحات.

ومع تزايد الوعي بالجوانب التطبيقية لعملية الاتصال، واستجابة لتحولات حادثة بالفعل في اتجاهات تعميق البحث من مستوى لآخر اقتضتها رغبة القائمين على هذا الحقل في إكساب معالجتهم لهذا المشغل المزيد من إحكام التنسيق بين حدود المعرفة النظرية، وامتداداتها الميدانية في سائر الحقول المعنية بها.[1] وعلى مدى التاريخ القريب لبحوث ودراسات الاتصال لا تبدو قضية أكثر أهمية وإلحاحاً من قضية الماهية والتعريف، وذلك لما يترتب عليها من انعكاسات على الأبعاد المختلفة للمسألة الاتصالية بدءاً من العناصر التكوينية، وانتهاء بالآثار والمترتبات الاجتماعية والاقتصادية، ولا شك في أن التعريف بالمصطلح العلمي يُعدُّ أحد أهم أشكال التعامل الابتدائي مع المفاهيم،

---

(١) مونييه، بيير. **مدخل إلى نظريات الاتصال**، ترجمة: عبد القادر رحيم، سلسلة دراسات إعلامية رقم (٢٢) تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٧م، ص٥.

وتمثل عملية التعريف في بحوث الاتصال ظاهرةً قائمةً بذاتها.

ويؤكد التطور المطّرد في علوم وبحوث الإعلام والاتصال الحاجة إلى تعريف جامع ومانع لمفهوم الاتصال، وبذلك؛ فإن توليد تعريفات جديدة تضاف إلى التعريفات السابقة فتزيد من تفكيك المعنى، وتوضيحه تارة وتعقيده ومخاتلته تارة أخرى.

فحينما ننظر للمفهوم من منظور أوسع ضمن إطار شبكة المفاهيم المتداخلة في وصف ظاهرة الاتصال تزداد حالة التشتت والتعقيد حدة، وهذا ما يجعل تعريف المفهوم مفرد كالاتصال أو الدعوة أيسر من تعريف مفهوم مركب مثل: "الاتصال الدعوي"، ومع ذلك لا مندوحة من تعريف كلا المفهومين باعتبارهما الأساس الذي يقوم عليه المركب المفهومي؛ موضوع البحث والدراسة.

وقد نتفق مع من يقول: "إن عدم وجود تعريف مقبول بصورة عامة لاصطلاح "اتصال"؛ حتى وقت قريب كان أمراً يبعث على الدهشة" فقد مرت عملية التعريف بمراحل هامة، شكَّلت بعضاً منها محطات أساسية في تطور العلم الاتصالي، بحيث لا يسع الدارس المختص في هذا العلم أو المهتم بمباحثه إلا الإلمام بها.

وهو ما حدا بالبروفسور علي محمد شمو بالوقوف على تلك الاعتراضات التي أبداها بعض علماء الاتصال على مبدأ التعريف لمخالفته للطبيعة الدينامية للعملية الاتصالية، معتبراً أن التعريف يقتضي بالضرورة تجميد العملية الاتصالية والتوقف ولو للحظات، وهو أمر يتعارض ومفهوم الاتصال كعملية Process، ويرفض هذا الفريق تعريف الاتصال لهذه الأسباب، ولكنه لا يمانع في الوصف Description بدلاً من التعريف.[1]

وهو اعتراض له وجاهته مع التسليم بحتمية تعريف الاتصال باعتباره عملية، ومن ثم يتم قبوله في سياق الحديث عن التعريف بمكونات العملية الاتصالية، وهي:

---

(١) شمو، **أساسيات الاتصال ومهاراته**، مرجع سابق، ص ١٨.

المصدر "المرسل"، والرسالة، والوسيلة، والمستقبل "المتلقي"، على اعتبار أن الاتصال هو عملية دائرية مستمرة، ومع استمرار العملية يتبادل المرسل والمستقبل الأدوار بصورة متوالية؛ فيصير المرسل مستقبلاً، والمستقبل مرسلاً، وهكذا، وبناء على ذلك؛ رفض الفريق المشار إليه وضع مكونات الاتصال بصورتها التقليدية؛ أي في هيئة نماذج تفسيرية مصورة اعتراضاً على أن عملية وضع النموذج تقتضي تجميد العملية، مما يخرج بها عن طبيعتها ويفقدها أهم عناصرها، وهو عنصر الدينامية.

وكما ذكرنا؛ فإن الاعتراض يتأسس في الأصل على تعريف معين للاتصال، مما يؤكد ضرورة عملية التعريف أكثر من أن ينفيها. ويبدو أن بروفيسور شمو قد اختاره فانطلق معرِّفاً الاتصال في بضع صفحات في معظم كتاباته الأكاديمية.

وبناء على ما تقرّر من أهمية عملية إعادة التعريف؛ ينبغي الانتباه إلى الصعوبات التي يمكن أن تواجهها هذه الإعادة، ففي حالة تعريف مصطلح ظاهر الحدود مثل: مفهوم "وسائل الاتصال". يخبرنا (ميرتن) عن ما يجاوز المائة وستين تعريفاً، والعدد يتزايد، وربما تضاعف إذا حاولنا رصد عمليات تعريف مفهوم الاتصال في معناه الواسع، وهو ما انعكس بدوره على بيئة العلم الاتصالي في الأقطار العربية والإسلامية التي تفشل في تأسيس رؤية مستقلة في التعامل مع قضية الاتصال.

تبرز الجهود الحثيثة والمتوالية الهادفة لصياغة تعريف جامع ومانع لمفهوم الاتصال والمفاهيم المرتبطة به إشكالية المفاهيم التي جرى الحديث حولها على أوضح ما يكون، حيث تثير كلمة اتصال -لشيء في طبيعة استخداماتها- نوعاً من التداخل يصعب تجنُّبه. وهو أمرٌ لا يتوقف على هذا العلم في صورته العربية فحسب، بل حتى ضمن علم الاتصال الغربي نفسه، وهو ما يعكسه التتبع لمفهوم الاتصال في السياقين العربي والغربي، بالاستعراض والتحليل لأهم وأشهر التعريفات الواردة في السياقين معاً، وبيان المضامين الكامنة في تلك التعريفات، وأهم العوامل المؤثرة في بنائها.

٢- التأسيس لمفهوم الاتصال الدعوي:

يتمثل أول انعكاس لحالة اضطراب المفهوم الاتصالي القائم في التنازع بين الرغبة العميقة في العلوم الاجتماعية والإنسانية في اكتساب صلابة واستقرار العلم الطبيعي، وتغليب مقدار الثابت على المتغير، وهو أمر متعذر على الوجه النسبي من التفكير البشري، فاستمرار التجربة الإنسانية في اتجاه تقدمي تطوري مرتبط بمرونة العقل الإنساني في تعاطيه مع الواقع والوجود الذي يتكشف منه بقدر تطور المعرفة الإنسانية، أما الوجه الإطلاقي في التفكير البشري؛ فتحكمه بالكلية الأحكام والسنن الإلهية المبثوثة بين كتابي الوحي والكون، ولا يقرأ الأخير إلا بالأول، ما يعني أن تلازم مفاهيم الكتاب الأول بمخرجات التفكر في الكتاب الثاني هو أدعا لاستقرارها واستدامة دلالتها ما ارتبطت بالأصل الخالد.

إن الواقع يُعزِّز أن الممارسة الدعوية بين التجربتين المسيحية والإسلامية تُظهر أن المفاهيم الدينية تتهاوى أمام الإرادة الجبارة لعلمانية العلم الغربي الذي يقف بمنجزاته ومشكلاته دليلاً على أن ذلك التلازم بين مفاهيم الوحي والعقل هو السبيل الأمثل لاستقرار المعرفة الإنسانية.

وقد يبدو أن هذه القناعات إيمانية أكثر من كونها نواتج لخبرة معرفية، ومع إيماننا بأن المعرفة الإنسانية مزيج من المعرفي والحدسي والتجريبي والحسّي، إلا أن منهجية العلم المنضبطة تدعونا لنفي ذلك، باستعراض مسيرة المفهوم الاتصالي والتحقق من مراحل تطوره، ومن ثم التنبوء بما ينتظره من مآلات؛ لنعود من بعد ذلك لمفهوم الدعوة لنقيم المعادلة والتوازن بينه ومفهوم الاتصال لتفهم ظواهر الاتصال الإنساني على إثارة من العلم وهدي من الوحي.

والاتصال كمفردة لُغوية قديم، والجديد هو توظيف هذه المفردة للدلالة على المعنى الاصطلاحي الذي يتجلَّى بممارسة مخصوصة.

٣- المفهوم الغربي للاتصال:

تعني كلمة "الاتصال" في اللغة العربية الربط بين شيئين، بينما كلمة "Communication" في اللغات الأوروبية تتضمن معاني الإشاعة والتعميم والاشتراك والتبادل، وهو ما نتحصّله عند رد المفهوم إلى أصوله اللغوية، واللجوء إلى المعنى القاموسي للمفهوم، وبالرجوع حيث نجد أن تعريف الاتصال Communication أن الكلمة تأتي للدلالة على فعل أو نشاط أو فكرة من التواصل، وهي تكتسب معناها من السياق الذي ترد فيه، ففي السياق الطبي يمكن أن تعني اكتساب العدوى (بالجدري مثلاً)، وفي سياق آخر قد تعني الإفشاء (لسرٍ ما).

والاتصال تواصل عن طريق كلمات أو حروف أو رسائل؛ وتبادل الأفكار أو الآراء، عبر مؤتمر أو أي وسيلة أخرى؛ المؤتمر، والمراسلات. كما تحمل معنى الانتقال من مكان إلى آخر. ومعنى أُبلغ أو تم نقله، أو التبليغ عنه؛ أو الإخبار به، شفهياً أو برسالة خطية. وقد تذهب للدلالة على معنى ديني مثل المشاركة في العشاء الرباني.

وقد ترجمت المفردة "Communication" في العربية إلى اتصال، مع أنها بالمعنى السابق أقرب إلى الإعلام والنشر منها إلى اتصال Linking.

ومن أقدم تعريفات الاتصال تعريف (ريتشاردز) عام ١٩٢٨م الذي لجأ في تعريفه إلى وصف الطريقة التي يتم بها الاتصال قائلاً: إن الاتصال يحدث حين يؤثر عقل في عقل آخر، فتحدث في عقل المتلقي خبرة مشابهة لتلك التي حدثت في عقل المرسل ونتجت جزئياً عنها.[١]

وإلى جانب تعريف (ريتشاردز) السابق فإن تعريف عالم الاجتماع (تشارلز كولي Charles Cooley) الذي أطلقه في عام ١٩٠٦م يُعَدُّ واحداً من أعرق وأشهر التعريفات الأكاديمية للاتصال، حيث نظر كولي للاتصال باعتباره ميكانيزماً اجتماعياً

---

(١) العبد، عاطف عدلي. **مدخل إلى الاتصال والرأي العام**، القاهرة: دار الفكر، ط٢، ١٩٩٩م، ص١٢.

فعرّفه بقوله: إن الاتصال هو "ذلك الميكانيزم الذي توجد عن طريقه العلاقات الإنسانية، وتنمو وتتطور الرموز العقلية، بواسطة وسائل نشر هذه الرموز عبر المكان واستمرارها عبر الزمان، وهي تتضمن تعبيرات الوجه والإيماءات والإشارات ونبرات الصوت والكلمات والطباعة والخطوط الحديدية والبرق والهاتف، وكل تلك التدابير التي تعمل بسرعة وكفاءة على قهر بعدي الزمان والمكان."[1]

ويعلل (ميللر) ١٩٥١م حدوث الاتصال بوجود معلومات في مكان أو لدى شخص ما، ويريد توصيلها إلى مكان آخر أو شخص آخر.[2] وهو ما أكده كل من (أميري) و(أولت وآجي) في عام ١٩٧١م حين عرّفوا الاتصال بأنه فن نقل المعلومات والأفكار والمواقف من فرد لآخر.

أما علماء الاتصال، ذوو المرجعيات الاجتماعية مثل: (ولبرشرام) و(ميلفن ديفلور)؛ فلهم منظورات مختلفة بشأن المفهوم، ففي عام ١٩٧٧م عرّف (ولبرشرام) الاتصال بأنه: "المشاركة في المعرفة" عن طريق استخدام رموز تحمل معلومات، في حين يرى أن عملية الاتصال هي وسيلة يُجرى بواسطتها التعبير عن القيم الجماعية وممارسة الرقابة الاجتماعية، وتوزيع الأدوار، وتنسيق الجهود والتعبير عن التطلعات ونقل العملية الاجتماعية.[3]

ومن رؤية مغايرة ومنظور مختلف كان طبيعياً أن يكون للقاموس الماركسي اللينيني الصادر في ألمانيا الديمقراطية -سابقاً- ١٩٦٩م مفهومه الخاص للاتصال، حيث عرفه بأنه: "خلق الروابط البشرية بفضل تبادل المعلومات الاجتماعية بواسطة العلاقات". مركزاً على الجانب التشاركي في العملية الاتصالية.[4] وهو ما علّق عليه

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

خبير الإعلام البولندي (توماس كوبان كلاس Tomasz Goban Klass) بقوله: "إن تعريف القاموس الماركسي هو الأكثر توافقاً مع الأصل اللغوي لتعبير الاتصال الذي يأتي أصلاً من الكلمة اللاتينية "Communicate" بمعنىٰ يوجد في علاقة، يشترك، يرتبط مع..."[١]

وتكثر النماذج المعبرة عن التوجهات العلمية والثقافية والأيدلوجية المتباينة المواقف مفهوم الاتصال، ولا شك في أن تعدد وتباين المرجعيات يمكن أن يوفر قدراً أكبر من التعريفات المتباينة في نظرتها للمفهوم.

وحول شيوع المعنىٰ الاصطلاحي الساري لمفهوم "الاتصال" يرىٰ أصحاب كتاب يساري النزعة مثل: "ثورة الاتصال" أن كلمة "اتصال" نفسها -دون أن تتخذ معناً مخالفاً- بعد مرورها بسايبرنيتيكية (وينر Wiener)[٢] أصبحت مشحونة بثقل جديد، وكمية من الدلالات لم تكن لها حتىٰ عام ١٩٤٨م، وهو التاريخ الذي نشر فيه (وينر) هذا العلم بين الناس، وإذا كنا نتكلم كثيراً عن الاتصال؛ فإن سبب ذلك كما يراه (بروتون)، هو: علم السايبرنتيك Cybernetic.

وإذا كانت الكلمة "اتصال" تبدو كما لو أنها تغطي حقائق متفرقة فهذا يرجع أيضاً لدراسات السايبرنيتيك التي روجت لهذا المفهوم الجديد، دون أن يصحب ذلك تعريف دقيق أو موحّد لمعناه، وربما كان ينبغي وضع مفهوم مرن كي يكون نجاحه شاملاً. وكان عدم التحديد الأساسي لكلمة "الاتصال" وراء الصورة الضبابية التي أحاطتها سريعاً بحدود دقيقة لـ"علم السايبرنيتيك".[٣]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢.

(٢) نسبة إلىٰ نوربرت وينر مؤسس علم السايبرنيتيك (علم التحكم).

(٣) بروتون، فيليب. وبرو، سيرج. **ثورة الاتصال: نشأة أيديولوجية جديدة**، ترجمة: هالة عبد الرؤوف مراد، القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٩٣م، ص١٨٩.

وقد جاء في قاموس الاتصال ودراسات الإعلام أنه وبينما كلمة اتصال وتعريفها يختلف تبعاً للإطار النظري للمرجع المستخدم، والأهمية التي تضفيها على ظواهر معينة ككل؛ فإن التعريفات جميعها تتضمن خمسة عوامل:[١]

- مرسل (مخبر) an imitator
- رسالة a message
- وسيلة أو أسلوب a mode
- مستقبل للرسالة receiver
- تأثير effect

كما تعني: نقل معلومات من أجل نشرها وذيوعها عن طريق المشاركة.[٢]

وتكتسب مدلولات متعددة بحسب الاختلاف في سياقات الاستخدام، فهي في صيغة المفرد Communication تشير إلى الاتصال كمفهوم أو نشاط أو سلوك أو عملية؛ بينما تشير في صيغة الجمع Communications إلى الوسائل الاتصالية.[٣]

ويلاحظ أن هناك تداخلاً بين مفهوم الاتصال وتقنيات الاتصال الشخصي والهواتف بأنواعها، فعندما أراد الناقد والفيلسوف الأمريكي (بورك Burke) طبع كتابه المعنون: "أطروحات عن الاتصال Treaties on Communication"، اضطر في النهاية لتغيير العنوان لتخوف الناشر من أن القراء سيعتبرونه دراسة عن التلفونات.[٤]

---

(١) عبد المجيد، شكري. **الاتصال الجماهيري الواقع والمستقبل**، القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩٦م. نقلاً عن:

- Watson, James. & Hill, Anne. *A Dictionary of Communication and Media Studies*. London: Edward Arnold, 3rd ed., 1993.

(٢) عبد المجيد، شكري. **الاتصال الإعلامي والتنمية**، القاهرة: العربي للنشر، ط١، ١٩٩٥م.

(٣) مكاوي، عماد حسن. والسيد، ليلي حسين. **الاتصال ونظرياته المعاصرة**، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط٤، ٢٠٠٣م، ص٢٥.

(٤) كاظم، فلاح. **المحنة: علم الاتصال بالجماهير**، عمّان: مؤسسة الوراق، ٢٠٠١م، ص٢٢.

وقد كان مفهوم الاتصال في الثقافة الغربية يحمل مضموناً ميتافيزيقياً بارتباطه بمفهوم التخاطر Telepathy والذي يعني تبادل الأفكار دون وسيط.

وتشترك الحضارات الشرقية في إضفائها على الاتصال بُعداً جوانياً ومسحة روحية، وقد تطوّرت الأنشطة التواصلية في الشرق، بإزاء الرغبة في التواصل مع المطلق، فالاتصال في التراث الصوفي الإسلامي درجة من درجات الترقي الروحي في سُلم الكمال، وهو أمر لا حضور له في معظم التعريفات العربية لمفهوم الاتصال، وليس ذلك فقط لعدم قدرتها على تمثيل روح الفكر الاتصالي الغربي القائم على مباديء العقلنة Rationalizing والعلمانية، بل لفشلها أيضاً في تمثُّل واستيعاب التراث العربي الإسلامي، الذي يحتوي على تحليلات عميقة لجوانب أساسية في عملية الاتصال، مثل: الإدراك، واكتساب المعاني، والإقناع، وتغيير الاتجاهات، والتي يمكن استقاؤها إلى جانب الوحي الكريم من أعمال ابن الطفيل وابن رشد والبيروني وابن الصانع وغيرهم.

كما أشرنا سابقاً؛ فإن أول ظاهرة مميزة تقابل من يقدم على محاولة تحليل المفاهيم الجوهرية للعملية الاتصالية، هي التداخل الحادث بين تلك المفاهيم، ويبدو هذا التداخل أكثر بروزاً في الدراسات العربية، حيث تقدم هذه الدراسات تعريفات عديدة للمفهوم الواحد لا يكاد يُشاكل بعضها بعضاً، هذا فضلاً عن عدم وجود اتفاق حول ما بين تلك المفاهيم من علاقات، وما إذا كانت علاقات ترادف أو تباين، ولعل مرجع هذا الاختلاف كما سبقت الإشارة إليه؛ هو نشوء المفهوم الاتصالي في بيئة معرفية مغايرة من ناحية، وضعف عملية الاستيعاب والتمثل للعلم الاتصالي ومفاهيمه في البيئة المعرفية العلمية العربية، وربما تعلق الأمر بحداثة نشأة علوم الاتصال حتى في بيئتها الأصلية.

ومن الواضح أن المفهوم في الدراسات العربية واجه إشكالات مختلفة، تتعلق بالترجمة عن اللغة الأصل والتي هي في غالب الأحيان الإنجليزية أو الفرنسية، وسنلاحظ في الفقرات الآتية أن هذه الثنائية في المصدر قد زادت من تعقيد عملية تسكين المفهوم الاتصالي في الدراسات العربية.

والاتصال كما هو معلوم نظام عائد في ملكيته للمجموع، وهو نظام تم قبوله وتطبيقه عبر أفراد المجتمع، يقومون عن طريقه بنقل وتبادل الأفكار، والتشارك في الرؤى والتوجهات، وحفظ ومعالجة المعلومات، ولكن الملاحظ أن الممارسات الاتصالية السائدة في المجتمعات العربية -والتي لا تحفل بها بحوث الاتصال الغربية- تظل غائبة بمفاهيمها عن ساحات التداول العلمي، مما يعطي انطباعاً أن الفضاء المفاهيمي لعلوم الاتصال في الجامعات العربية يعبر عن مضامين الغربي أكثر من تعبيره عن واقع الاتصال في المجتمعات العربية نفسها، ويمكن التمثيل لذلك بمفهوم "الدعوة" الذي يشمل ممارسات اتصالية مستقرة ومستمرة في تلك المجتمعات؛ وهو مفهوم أبلغ في تعبيره عن تجليات الظاهرة الاتصالية من كثير من المفاهيم السائدة، فقد تأسس الوعي بأبعاد الفعل الاتصالي في وقت باكر من عمر التجربة الاجتماعية الإسلامية، وقد تمحور الاتصال الديني حول العملية الدعوية القائمة على ركني الدعوة من ناحية، والاستجابة من الناحية الأخرى، ومن المؤكد أن هذا الشكل أوفق في تمثيله لعملية التواصل الإنساني في المجتمعات الإسلامية من نموذج المثير والاستجابة الذي يستدعي في الذاكرة سلوك الحيوان أكثر من تعبيره عن السلوك البشري.

وقد هيّأ لهذه الكلمة أن تعبر من اللاتينية إلى الثقافة العربية المعاصرة عن طريق معبرَين رئيسيين، هما: اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية، والتفريق بين المصدرين مهم لما له من انعكاسات لاحقة على شكل الترجمة ومضمونها. ففي المشرق العربي ترجمت كلمة Communication إلى المفردة العربية "اتصال" على اختلاف مجالات الاستخدام سواء في دائرة علم الاتصال أو العلوم التقنية أو الفلسفة.

وفي الأقطار ذات الاتصال بالثقافة الفرنسية كما هو الحال في دول المغرب العربي؛ فقد تم التفريق بين الاستخدامين فينحصر استخدام مفردة "اتصال" غالباً على مستوى العلوم التقنية. أما في نطاق دراسات الفلسفية والعلوم الإنسانية والإعلامية؛ فالتفضيل لاستخدام كلمة "تواصل"، ولكن هذا لا يمنع وجود لاستخدام كلمة "اتصال" في

سياق الدراسات الإنسانية لدى بعض ممن ترجموا كتابات إعلامية فرنسية إلى العربية.

ويجدر التنبيه هنا إلى أن بعض نظم الترجمة الآلية[1] تضع مفردة "تواصل" العربية كترجمة لمعنى عبارة: Interpersonal Communication والتي تعرفها أدبيات الاتصال العربية بعبارة: "الاتصال بين فردين"، ولا شك في أن ثمة اختلاف واضح في الدلالة يفصل بين كلمتي: "اتصال" و"تواصل"، فالتواصل يتضمن عنصراً مضافاً إلى الاتصال وهو "التفاعل" والاستمرارية، لذلك جاء تعريفنا للتواصل على نحو ما سيظهر في موضعه متضمناً لهذا البعد؛ والملاحظ أنه لا اختلاف يذكر بين التعريفات السابقة وتعريفات الأكاديميين العرب للمفهوم.

يعرّف إبراهيم إمام ١٩٦٩م الاتصال بأنه: "حامل العملية الاجتماعية والوسيلة التي يستخدمها الإنسان لتنظيم واستقرار وتغيير حياته الاجتماعية، ونقل أشكالها ومعناها من جيل إلى جيل، عن طريق التعبير والتسجيل والتعليم."[2]

ويعرّفه خليل أبو أصبع بأنه: "عملية ديناميكية يقوم بها شخص ما، أو أشخاص، بنقل رسالة تحمل المعلومات أو الآراء أو الاتجاهات أو المشاعر إلى الآخرين، لتحقيق هدف ما، عن طريق الرموز، لتحقيق استجابة ما، في ظرف ما أو سياق أو بيئة اتصالية، بغض النّظر عمّا قد يعترضها من تشويش."[3]

من جانبه يرى فلاح كاظم أن خير تعريف عربي جامع وشامل للإعلام هو ما أورده الدكتور إبراهيم الداقوقي أستاذ الإعلام في جامعة بغداد قسم الإعلام؛ إذ يقول: "الإعلام هو عملية تلقي المعلومات وكل ما يتصل بالفكر الإنساني في تفاعله مع المجتمع، وهضمها، مع إعادة إرسالها وفق متطلبات المجتمع القُطْري والقومي والعالمي بوسائل الإعلام المقروءة، أو السمعية، أو السمعية البصرية، كالتلفزيون في

---

(١) منها خدمة Translation ضمن خدمات Google.

(٢) إمام، إبراهيم. **الإعلام والاتصال بالجماهير**، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٥م، ص٢٨.

(٣) أبو أصبع، خليل. **الاتصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة**، ط٤، عمان: دار مجدلاوي، ٢٠٠٤م، ص١٤.

حركة أفقية ورأسية في آن واحد."[١]

ويرى الأستاذ طلعت منصور أن مفهوم الاتصال ينبغي أن يقوم على تصور شمولي يضع في الاعتبار كل المحددات المتعلقة بالفرد والجماعة في عمل اتصالي معين، ويستلزم ذلك تناول الاتصال في إطار يتضمن جوانب متعددة الاتصال، كنظام للسلوك، وهو نشاط يقوم على ترجمة الرموز والاتصال، كعملية تفاعل، هو: وصال Linkage process بين المرسلين والمستقبلين للرسائل، وفي العملية تتضافر عوامل ومتغيرات كثيرة، أما السياق الاجتماعي Suet Context الذي يتوافر فيه الاتصال؛ فيشير إلى تلك القوى التي تؤثر في الاتصال في موقف معين والتي تحكم تدفق المعلومات ونماذج التأثير من جماعة مرجعية إلى جماعة أخرى، ومن ثقافة فرعية إلى ثقافة أخرى.[٢]

٤- نقد التعريفات العربية للاتصال:

كما لاحظنا سابقاً؛ فإن التعريفات العربية قد تأثرت هي الأخرى بثلاثة عوامل تُضاف إلى العوامل السابقة، هي: الخلفية التخصصية للقائم بالتعريف، والأصل اللغوي للمفهوم، والسياق التخصصي الذي تتم ضمنه عملية التعريف.

ويمكن وصف المحاولات العربية لتعريف الاتصال بأنها تصدر عن قراءة سكونية للمفهوم؛ إذ تنظر إلى مفهوم الاتصال من موضعه الإبستمولوجي الذي اتخذه بعد عزله من سياقه الاجتماعي. وهي قراءة سكونية؛ لأنها عاجزة عن ربط المفهوم "الإبستمولوجي" الفوقي بجذوره الاجتماعية الدنيا، وتقدمه في إطار القوانين الداخلية لعملية الإنجاز الفكري، وطبيعة القوانين العامة التي تحكم حركة الواقع الاجتماعي.[٣]

---

(١) صالح، قاسم حسين، **سايكولوجيا اللغة والاتصال**، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م، ص١٧.

(٢) منصور، طلعت. "سيكولوجية الاتصال"، **مجلة عالم الفكر**، الكويت، المجلد (١١)، العدد (٢)، (يوليو، أغسطس، سبتمبر ١٩٨٠م)، ص١٠٣.

(٣) أبو شوك، أحمد إبراهيم. "موت مؤرخ: محمد سعيد القدال (١٩٣٥-٢٠٠٨م)"، **صحيفة الأحداث**، الصادرة بتاريخ ١٠/ ٠١/ ٢٠٠٨م.

كما أن هذه القراءة العربية للمفهوم ظلت تؤكد عجزها عن صياغة تعريفات مستقلة قادرة على التعبير عن واقع الظاهرة الاتصالية في المجتمعات العربية، حيث يلعب الفصام القائم في العقل الأكاديمي العربي بين الأطر النظرية للعلم والتي تمت صياغتها وفق معطيات غربية، والواقع الاجتماعي المعاش الذي يفترض أنه يمثل المحيط الموضوعي لذلك العلم، يلعب دوراً كبيراً في إضعاف مستوى الأصالة في الأطروحات الاتصالية في العالمين العربي والإسلامي، وهي مشكلة جوهرية ترتبط بتكوين الباحث أكثر من ارتباطها بعملية التعريف في حد ذاتها.

٥- الفرق بين الاتصال والتواصل:

التواصل يُقصد به فيما نرى: السلوك الاتصالي الموجب بين أطراف العملية الاتصالية والناتج عن تحقق القدر الضروري من الثقة والفهم المشترك، ويكون التواصل بهذا المعنى هدفاً رئيساً من أهداف العملية الاتصالية، ونحاول هنا تقديم تحليل معرفي لهذا المفهوم على نحو يضعه في سياقه، في الوقت الذي يجد فيه الأفراد أنفسهم في بيئة جديدة ليست لهم بها خبرة أو علاقات سابقة، تبدو الحاجة إلى الاتصال واضحة بأبعادها النفسية والاجتماعية؛ إذ إن الشعور بالعزلة والاغتراب يزيد من الوعي بتلك الحاجة التي تأتي كغيرها من الحاجات الإنسانية مصحوبة بقدر من التوتر النفسي الذي يزول بزوال المؤثر وتحقيق الإشباع لتلك الحاجة، وقد يكون التواصل مشتركاً في بعض دلالاته مع التقبل الاجتماعي، والتعارف والتفاهم، والتي تنتهي جميعها إلى إشاعة نوع من الطمأنينة والألفة بين أطراف عملية الاتصال، والمؤثر المقصود هنا هو: وعينا بوجود آخرين -زملاء، جيران، أقران-، وحالة الإشباع المستهدفة التي ينهي الوصول إليها التوتر؛ هي حالة التواصل الوجداني- الاجتماعي- الإنساني ... إننا وخلال ممارستنا ومشاركتنا في عمليات الاتصال المختلفة نسعى للتحقق من أننا قد وصلنا أو اقتربنا من حالة التواصل.

ويبدو أن حالة التواصل هي غاية العملية الاتصالية وهدفها الذي يبتغيه من يندفعون إلى المشاركة في النشاط الاتصالي الإنساني في الأحوال العادية، ومن ثم فإنه

وبمجرد بلوغ حالة التواصل بين أطراف العملية الاتصالية يتحقق الاستقرار، ويتهيأ ظرف أكثر إيجابية لإنجاح عملية الاتصال، ومن هنا يظهر وجه آخر من وجوه الاختلاف بين الإعلام والاتصال، فعملية الإعلام تنتهي بمجرد تغيير الحالة المعرفية للطرف المراد إعلامه أو مده بمعلومة ما. أما الاتصال؛ فهو عملية مستمرة تسعى باتجاه بناء علاقة (معرفية، اجتماعية، وجدانية) بين طرفين أو أكثر، تكون المعلومة فيه مجرد أداة أو عامل مساعد، وإذا كان واضحاً أن علم الإعلام يهتم بدراسة أنماط معينة من الاتصال، وتساعد المقارنة بين المواقف المتقابلة بين مفهومي الإعلام والاتصال تأكيد أن ما سعى اليه العلم الغربي من حسم الإشكال المفهومي لصالح الاتصال على حساب مفهوم الإعلام لا يزال أمراً بعيد المنال، وهو ما يجسِّده موقف كل من الفرنسي (ريجيس دوبرييه) والألماني (هابرماس Habermas) باعتبار أطروحتيهما الأحدث ظهوراً على المستوى الفلسفي تفضيلاتهما بين مفردتي الاتصال والإعلام، فقد اختار الأول الاستناد لعبارة "علم الإعلام العام" فجعلها عنواناً تفسيرياً لأطروحته "الميديالوجيا" بينما اختار الفيلسوف الألماني (هابرماس Habermas) مفهوم "الفعل التواصلي" وهو ما يزيد في بيان جوهرية الإشكال المفاهيمي في هذه العلوم.

والاتصال بطبيعته يُشكِّل المقدمة الضرورية لحصول التواصل ولتحقيق ذلك، فمن الضروري أن يكون الاتصال نشاطاً قاصداً منذ البداية لتحقيق التواصل، أما إذا ظللنا نتعامل مع الاتصال كأداة تحكمية لتغيير الاتجاهات ووسيلة لتنميط الرأي العام؛ فإننا بذلك نكون قد عملنا على توسيع الشقة ووضع العراقيل في المسافة القائمة بيننا وبين تحقيق التواصل المنشود.

ولا يؤمل أن يوجد مثل هذا النوع من الرؤية والتفكير الاتصالي في وسط لا يؤمن بالمثل والمثالية، فالأنظمة الاجتماعية السياسية في المجتمعات المعاصرة تعتمد رؤيةً براجماتية، وفي بعض الأحيان ميكافيلية، وهو وسط لا يعير اهتماماً بالأبعاد الأخلاقية، كما أن العالم الذي تتحكم فيه فلسفة صراعية لا يركن إلى الثقة في البعد الإنساني

المجرد. ويبدو أن ذلك الفريق من المفكرين الذين لا يؤمنون بصورة طوباوية للعالم هم الأوفر حظاً في التاريخ الإنساني عامة والأكثر تنفذاً في واقعنا بشكل أخص.

وإذا انقلبنا إلى الواقع، ونظرنا في مفارقة ضعف التواصل مع ضخامة البنية التقنية للاتصال؛ ذلك الواقع الذي التفت إليه عدد من علماء وخبراء الاتصال والإعلام، الذين تحتوي أعمالهم تعبيرات بليغة في وصف الحالة منها: "وسائل الاتصال التي تكرس العزلة" وعبارة "اتصال بلا تواصل" والتي انطلق منها البحث عن مقدار التشابه والاختلاف بين مفهومي الاتصال والتواصل، وانتهى بنا إلى ما نحن فيه الآن.

وفي البحوث الاستطلاعية حول المفهوم في سياقاته اللغوية والاجتماعية، تظهر القرائن لتي تربط المفهوم بأبعاد روحية ميتافيزيقية، ففي التراث العربي الإسلامي مثلاً ترتبط مفاهيم الاتصال والتواصل بـ العلوم العرفانية.

وكما ذكرنا فإن تراث اللغات اللاتينية يحوي ربطاً لكلمة "Communication" بعلوم التخاطر Telepathy أما المفردات الدالة على التواصل كما نجدها في معجم ويبستر مثلاً؛ فهي تشير إلى قدر عال من الحميمية والروحانية.[1]

يعرف قاموس ويبستر التواصل Mutual communication بأنه: اتصال مشترك؛ إذ يسعى الناس بطبيعة الحال لتحقيق التواصل والزمالة مع الآخرين، وهو عملية تقاسم واشتراك ومشاركة.

- الاتصال بين شخصين أو أكثر، والإدراك اللاشعوري، ورابطة حميمة كما يعني التعاطف والثقة، وتبادل الأفكار والأغراض، وما إلى ذلك؛ ويعني أيضاً الاتفاق، والزمالة، والتواصل مع أرواح القديسين.

---

(١) انظر الكلمات المفتاحية: Com`mun´ion: على موقع قاموس ويبستر:

- http: //www.webster-dictionary.net/definition/communion

- وهو في دلالة أخرىٰ شيء من سرِّ القُربان المقدّس، وحفل العشاء الرباني.

ثانياً: تعريف عام للاتصال الإنساني

نخلص مما سبق للتعريف الآتي للاتصال، حيث يمكن تبعاً للدراسة السابقة تعريف الاتصال بسبعة عناصر:

- إننا عندما نطلق كلمة اتصال في وصف العلاقات الإنسانية، فإننا نقوم بوصفٍ لعلاقةٍ قائمة علىٰ نوع من الاستعداد الذهني.
- إن هذه العلاقة قائمة بين شخصين أو أكثر.
- قوام هذه العلاقة قدر من الاشتراك والتبادل والنقل للمدركات والمواقف الشعورية، أو الصور الذهنية.
- إن بنية الرسائل المتبادلة قد تكون رمزية، وقد تكون لفظية.
- إن هذا النقل يتم باستخدام الحواس، وامتداداتها التقنية من الوسائل الاتصالية المختلفة.
- إن الغاية من هذه العلاقة هو القضاء علىٰ العزلة وإزالة الجفوة، وتحقيق التعارف في أطار العملية التواصلية.
- إنه في حالة انقطاع التواصل يتعذر القيام بالوظائف الحيوية والاجتماعية والثقافية للحياة الإنسانية بطريقة سلسة وعفوية.

ويشمل الاستعداد الذهني وجود إطار دلالي مشترك، أو إطار من الخبرة المشتركة بين أطراف العملية الاتصالية. كما يشمل استخدام مهارات الاتصال الأساسية والمكتسبة -السمع والكلام، القراءة والكتابة- ونحوها. ونعني بالاشتراك؛ إيجاد أو التحقق من مستوىٰ المعرفة المشتركة بين أطراف العملية. أما التبادل؛ فنعني به الانتقال المتبادل للمعرفة بين أطراف العملية. ويشير النقل إلىٰ انتقال المعرفة من طرف لآخر بقصد الإخبار والإعلام، أو التعليم والتدريب. وعليه؛ فالحياة الإنسانية في

صورتها المثالية هي حياةٌ مفعمةٌ بالاتصال والتواصل، والفعل الإنساني نادراً ما يخلو من بُعدٍ تواصليٍّ مع الذات أو الآخر، ويستكمل الإنسان دائرته التواصلية حينما يقيم علاقة موجبة مع إطاره البيئي والكوني، مما يحقق استدامة الحياة الطيبة، ويحقق مقاصد الوجود الإنساني.

وإجمالاً لما سبق؛ فإن الملاحظة تحيل إلى أن ثمة عوامل قد لعبت دوراً بارزاً في خلق نوع من الضبابية على الفضاء المفاهيمي لعلوم الاتصال عامة، من أهمها: الحداثة النسبية لظهور الاتصال كعلم قائم بذاته، وشدة التداخل بين مباحث علم الاتصال والعلوم الأخرى، وتسارع وتيرة التطور في مجال تقنيات ونظم الاتصال المعاصرة.

ولعل من أهم العوامل التي أسهمت في تكريس هذا الوضع في البيئات العربية:

- الاختلاف في لغة مصدر المعرفة العلمية الاتصالية بين اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية.
- الاعتماد على جهود الأفراد في ترجمة المصطلحات، والكتب المرجعية في مجال الاتصال.

إلا أنه يتوقع مع تزايد الاهتمام بالحقل الاتصالي واتساع دائرة المشتغلين به، وسعي باحثيه ومؤسساته العلمية على تأكيد شخصيته كعلم قائم بذاته أن تتجه بنيته المفاهيمية وقاموسه الاصطلاحي لاكتساب ملامح أوضح، والتعبير عن الظاهرة الاتصالية على أفق أوسع.

وفي تحليلنا السابق يمكن ملاحظة كيف تتجلّى إشكالية المفهوم لتشمل في داخلها حتى المفهوم الجوهري لهذا العلم وهو مفهوم "الاتصال" فقد تأسست المنهجية المتبعة في دراسات الاتصال في بلادنا على نظره للمفهوم الاتصالي، تراه مفهوماً وظيفياً لا قيمياً، مما نتج عنه استيراد سلبي للمعرفة الاتصالية الغربية لمجرد كونها الأسبق ظهوراً، والأسبق في التعامل مع واقع تلك المجتمعات والتأثير فيه، وربما كانت تلك السلبية في استيراد المعرفة الاتصالية ناتجةً عن أن العقلية العاملة في هذا الجانب لم

تستصحب ثلاثة أنواع من الخصوصيات ذات الأثر المباشر في البيئات العربية الإسلامية، هي: الخصوصية العقدية الدينية، والخصوصية الأيدولوجية السياسية، والخصوصية الثقافية، تلك الخصوصيات التي تسندها محددات نفسية تستدعي نوعاً من الحساسية وردود الأفعال العنيفة أحياناً حيال أي موقف قيمي يمسُّ هذه الخصوصيات الثلاث، فالمساس بالخصوصية الدينية يحفز بصورة لا إرادية المكونات الروحية والعقدية في شخصية متلقي الرسالة الإعلامية، كما أن المضامين التي تستهدف برسالتها أهدافاً ذات أبعاد أيدولوجية وسياسية تثير في نفوس المتلقين ردود أفعال أيدولوجية فكرية. أما في جانب الخصوصية الثقافية؛ فتبرز العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية كمحددات أساسية لنمط السلوك المتوقع حيال الرسالة ذات الأهداف الثقافية صناعة وتفاعلاً.

وتتمثل أهم الإشكالات الناتجة عن هذا الوضع في العجز الذي تبديه دراسات وبحوث الاتصال المعاصرة حيال الواقع العربي الإسلامي، وضعف قدرتها على العمل بذات الفعالية التي عملت بها في بيئاتها الأصلية، ولقد اكتفينا في هذا الجزء بإعادة قراءة المفهوم الاتصالي والنظر في المفاهيم المشتركة والأساسية لدراسة الظاهرة الاتصالية، وأرجأنا المفاهيم ذات الارتباط بنظام الاتصال الإسلامي مثل: (مفهوم الدعوة والاستجابة) وفق منهجية في التحليل تجمع بين مناهج التحليل اللغوي، والتحليل الإبستمولوجي لمفاهيم الاتصال.

وقبل أن نتجه إلى التعريف الاتصالي للدعوة يجدر أن نُلقي نظرة على الخريطة المفاهيمية لعلوم الاتصال ونبدأ بالمفهوم الأسبق ظهوراً، والأكثر شيوعاً واستخداماً، وهو مفهوم الإعلام، لقد ظل مفهوم الاتصال يعد وإلى وقت قريب مفهوماً مدرسياً، منحصراً في حدود الاستخدامات العلمية والأكاديمية، حتى شاع استخدامه في المجال العام تبعاً لتطورات التقنية في مجال المعلوماتية والاتصال، وقد شاع استخدام مفهوم الإعلام باعتباره المقابل العربي لكلمة: "Information" السائد استخدامها في الغرب الذي تخرج في جامعاته معظم رواد الإعلام في العالم العربي، ولذلك نجد أن أستاذاً

رائداً كعبد اللطيف حمزة يعتبر تعريف الألماني (أوتوجروث Ouitogroth) تعريفاً معيارياً من حيث الوضوح، ويعرّف (أوتوجروث) الإعلام بـ"أنه التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت."[١]

وقد نبّه عددٌ من علماء الاتصال العرب إلى وجود خلط بين مفهومي الاتصال والإعلام، حيث يتسع مفهوم الإعلام في العربية أحياناً ليشمل مفهوم "الاتصال" وينكمش في أحايين أخرى ليقتصر على وسائل الاتصال أو أحد وظائفه، ويرى آخرون أن كلمة إعلام تقصر عن استيعاب ظاهرة الاتصال بأبعادها المختلفة، وذلك باعتبار الإعلام إدلاء من جانب واحد.[٢] وهناك خلط آخر يمكن ملاحظته في بحوث الاتصال العربية بين مفهومي "الإعلام والمعلومات" تبعاً لاشتراك المفهومين المتباينين في العربية في أصل لاتيني واحد للكلمة "Information" والتي تعني شرح أو توضيح شيء ما. والرباط بين مفهوم الإعلام والمعلومات وثيق، والمفردة الدالة عليهما في اللغات اللاتينية واحدة، ويمكننا القول بأن المعلومات هي الشئ الذي يُغيِّر من الحالة المعرفية للشخص في موضوع ما، وكذلك هي؛ أي معرفة تكتسب بالاتصال أو البحث أو التعليم أو الملاحظة[٣] يعطي المعنى المعجمي للفظ معلومات Information كما يرى الفرنسي (جاك إيلول) إحساساً بالشكل form، إنه يقوم بتشكيل السلوك وفقاً لها.[٤]

والمعلومات في علوم الكمبيوتر بيانات تُشكِّل الحقائق والأفكار، بأسلوب يجعل بالإمكان توصيلها أو معالجتها بأساليب متنوعة.[٥] وفي علوم الإدارة مثلاً فينظر

---

(١) شمو، **أساسيات الاتصال ومهاراته**، مرجع سابق، ص١٦.

(٢) العبد، **مدخل إلى الاتصال والرأي العام**، مرجع سابق، ص١٦.

(٣) كما قال عنها د. حشمت قاسم: إنها في مرحلة وسطية بين البيانات والمعرفة، فالبيانات هي حقائق متفرقة، وعندما تتجمع هذه الحقائق وترتبط معاً تصبح معلومات، وعندما تصبح المعلومات قادرة على التأثير في سلوك الفرد والمجتمع تتحول إلى معرفة.

(٤) أيلول، جاك. **خدعة التكنولوجيا**، ترجمة: فاطمة نصر؛ القاهرة: مكتبة الأسرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٩٢.

(٥) المرجع السابق. ص٣٩٤.

للمعلومات على أنها ذلك الشيء الذي يغيّر الحالة المعرفية للشخص في موضوع ما.

وتبين هذه التعريفات مناطق التداخل بين مفهوم المعلومات ومفهوم الإعلام الذي يعبر عن أحد أهم وظائف الاتصال، والتي اكتسبت أهمية مضاعفة خلال حقبة ازدهار وسائل الاتصال الجماهيرية Mass Media، حيث تخلف شعور بأن وظيفة الإعلام تشكل جوهر العملية الاتصالية، فترتب على ذلك تسمية "علم الإعلام "وتعريف وسائل الاتصال باعتبارها وسائل للإعلام، وهو ما تم تداركه لاحقاً بعد التطورات الكبرى في مجال بحوث الاتصال. وقد تزامن شيوع هذا المفهوم للإعلام وازدهار المساقات الرئيسة الأربعة لهذا العلم، وهي: الدعاية، والرأي العام، ووكالات الأنباء وسائل الاتصال الجماهيرية.

سنلاحظ في السياق الذي تتبعنا فيه المفاهيم الرئيسية المشكِّلة للمنظور التواصلي أن مفهوماً تواصلياً يعبر عن الخصوصية الثقافية للمجتمعات المسلمة لم يظهر أو لم تُتح له الفرصةُ للظهور، في حين فرضت مفاهيم لم يتم حولها الاتفاق، وظلت تثير إشكالات على مستوى بيئتها الأصلية، كمفهوم الرأي العام والدعاية، برزت باعتبارها مفاهيم علمية معيارية، قد لا يكون الأمر مستغرباً في النسخة الغربية لعلوم ودراسات الاتصال، أما أن يكون هذا هو الحال في البيئات والمجتمعات العربية والإسلامية؛ فإن ذلك مما يستدعي التوقف والمراجعة.

والاتصال كما هو معلوم نظام عائد في ملكيته للمجموع، وهو نظام تم قبوله وتطبيقه عبر أفراد المجتمع ليقوموا من خلاله بنقل وتبادل الأفكار، والتشارك في الرؤى والتوجهات، وحفظ ومعالجة المعلومات، ولكنّ الملاحظ أن الممارسات الاتصالية السائدة في المجتمعات العربية -والتي لا تحفل بها بحوث الاتصال الغربية- تظل غائبة بمفاهيمها عن ساحات التداول العلمي؛ مما يعطي انطباعاً أن الفضاء المفاهيمي لعلوم الاتصال في الجامعات العربية يعبر عن مضامين الاتصال الغربي أكثر من تعبيره عن واقع الاتصال في المجتمعات العربية نفسها، ويمكن التمثيل لذلك

بمفهوم "الدعوة" الذي يشمل ممارسات اتصالية مستقرة ومستمرة في تلك المجتمعات؛ وهو مفهوم أبلغ في تعبيره عن تجليات الظاهرة الاتصالية من كثير من المفاهيم السائدة، فقد تأسّس الوعي بأبعاد الفعل الاتصالي في وقت باكر من عمر التجربة الاجتماعية الإسلامية، وقد تمحور الاتصال الديني حول العملية الدعوية القائمة على ركني الدعوة من ناحية والاستجابة من الناحية الأخرى، ومن المؤكد أن هذا الشكل أوفق في تمثيله لعملية التواصل الإنساني في المجتمعات الإسلامية من نموذج المثير والاستجابة، الذي يستدعي في الذاكرة سلوك الحيوان أكثر من تعبيره عن السلوك البشري.

ومع ما اتضح لنا فيما مضى من فقرات كيف أن قضية المفهوم تمثل موضعاً يتجلّى فيه تباين الرؤى العلمية والمداخل المنهجية على أوضح ما يكون، ويلزمنا هنا أن نسير باتجاه التحقق من العلاقة بين مفهومي الدعوة والاتصال على نحو اكثر تفصيلاً مما فعلنا مع المفاهيم السابقة.

ثالثاً: العلاقة بين الدعوة والاتصال

مع وضوح معنى الدعوة في كتب اللغة، إلا أن ثمة إشكالات تعترض محاولة تحليل هذا المفهوم حال ارتباطه بمفاهيم الاتصال، مثل: مفاهيم الإعلام والدعاية والاتصال، ولأن الممارسات البحثية الاتصالية السائدة في المجتمعات العربية، تقوم في معظمها على مفاهيم وأدوات غربية، أمر لا يمكن إنكاره مما جعل التراث البحثي العربي الإسلامي يبدو معبراً عن مضامين الاتصال الغربي أكثر من تعبيره عن واقع الاتصال في المجتمعات العربية والإسلامية نفسها، وعليه؛ يغدو طبيعياً غياب المفاهيم الاتصالية ذات الخصوصية في الإسلام كمفهوم الدعوة مثلاً، وفي هذا السياق جاء الفصل السابق باعتباره مقدمة ضرورية لموضوع هذا الفصل المخصص لدراسة العلاقة بين مفهومي الدعوة والاتصال، وتحديد موقع الدعوة من الخريطة المفاهيمية للدراسات الاتصالية ليتبلور من حصيلة ذلك التعريف الإجرائي للاتصال الدعوي، كما تقرره هذه الدراسة.

ونبدأ بالوقوف على أهم التعريفات التراثية لمفهوم الدعوة، فالدعوة في الكتابات الشرعية والدراسات الإسلامية تعرف باعتبارها الدعوة إلى الله، وتعني: "الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، وبتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا،" وهو ما عرّفها به شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى[1] أو كما عرَّفها الطبري بقوله: "هي دعوة الناس إلى الإسلام، بالقول والعمل."[2] أما باحثو الدراسات الإسلامية المعاصرين؛ فيعرفون الدعوة بأنها: "تبليغ الإسلام للناس، وتعليمه إياهم، وتطبيقه في واقع الحياة"[3] ولمفردة دعوة في اللغة دلالات حدية، أسهبت معاجم اللغة وقواميسها في عرضها والتعريف بها، فمفردة دعوة قد تعني في اللغة:

- الرغبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهي من الفعل دعا، ومصدره دعاء ودعوى، والاسم منه الدعوة والدعاوة.[4]
- قد تفيد الاستغاثة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].
- دعاه واستدعاه؛ أي صاح به.
- تطلق كلمة دعوة ويراد منها النداء، وفيها قولك: دعوت زيداً؛ أي ناديته وطلبت إقباله.

---

(١) الحراني، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. **مجموع فتاوى ابن تيمية**، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، بيروت: دار الوفاء، ط٣، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م)، ج١٥، ص١٥٧.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، بيروت: دار هجر، ط١، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م)، ج١٣، ص٣٧٨.

(٣) البيانوني، **المدخل إلى علم الدعوة**، مرجع سابق، ص١٧.

(٤) الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد. **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص١٦٥٥، باب: الواو فصل الدال، مادة: (دعو).

وهنا يجب ملاحظة الآتي أن التعريفات التراثية الاصطلاحي منها واللغوي قد جاءت مواكبة لتفسير قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥] ومن ثم تصبح التعريفات الواردة وافية بالمطلوب في حدود التفسير، ولكن الدعوة في السياق الاجتماعي تحتاج إلى تعريف أكثر شمولاً يستوعب في ثناياه وظائف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة العامة ومناصحة ولاة الأمر، هذا بخلاف الوظائف التقليدية للدعوة، مثل: الأذان للصلاة والخطابة المسجدية والوعظ والإرشاد الاجتماعي، بهذا المعنى تصبح التعريفات السابقة غير وافية بالمطلوب على نحو تام.

والملاحظ أن كثيراً من الدراسات المتخصصة في "مبحث/ علم الدعوة" -الذي هو أحد مساقات الدراسات الإسلامية- قد أسست على ذلك التعريف التراثي متناسية التحولات الكبيرة التي طرأت على ممارسة الدعوة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

والمعنى الجوهري الذي يدور حوله المعنى اللغوي للدعوة هو نداء الناس وإمالتهم إلى الإسلام، وحثهم على الانتساب إليه والالتزام به، والاجتماع عليه، وهو ما جرت التعريفات الاصطلاحية تأكيده.

وقد ذهب محمد أبو الفتح البيانوني -أحد أشهر من كتبوا في الدعوة من المعاصرين- إلى أن الدعوة في اللغةً تعني: "الطلب: يقال: دعا بالشيء: طلب احضاره، ودعاه إلى الشيء: حثّ على قصده، يقال: دعاه إلى القتال، ودعاه إلى الصلاة: ودعاه إلى الدين، وإلى المذهب: حث على اعتقاده وساقه إليه."[(١)]

وعرِّفت الدعوة اصطلاحاً بأنها: "ذلك الجهد المنهجي المنظم، والهادف إلى تعريف الناس بحقيقة الإسلام."[(٢)] وأنها: "هي حركة علمية عملية لنشر الإسلام وتعليمه للناس وتعريفهم به على الوجهة الصحيح، وفق منهج علمي مدروس،

(١) البيانوني، **المدخل إلى علم الدعوة**، مرجع سابق، ص١٦.

(٢) برغوث، الطيب. **منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، ص٦٧.

بوسائل وأساليب راقية ومتجددة، بواسطة دعاة مسلمين يقومون به في الناس على هدى وبصيرة."[1]

والدعوة بالنسبة لداعية من المسلمين الجدد:[2] "دعوة الناس إلى الإسلام،" ويعني السعى لإبلاغ الإسلام لكافة الشرائح المستهدفه، وإذا أخذنا كلمة "To Call" يقصد بها المناداة، والتي بدورها تحتاج لمجهود من أساليب ووسائل لإيصال الرسالة من خلال ما يجب أن يبذل للوصول إلى الاتصال الدعوي، والملاحظ أن كلمة "To Call" دائماً تستخدم لدى المسيحيين الذين دخلوا الإسلام بمعنى الدعوة، ولكن الصحيح بالطبع المقابل لها في الدعوة الإسلامية هي الدعوة To Invite.

وقد تتضارب الآراء حول مفهوم الدعوة كالحال من جل المفاهيم الاجتماعية والإنسانية، إلا أن العاملين في كلا مجالي الدعوة والاتصال لا يكادون يختلفون في هذا مفهوم، حيث يشير إلى الممارسة الاتصالية الأهم والأكثر استقراراً في المجتمعات الإسلامية، ويشمل في دلالته إلى جانب البعد الديني الشعائري أبعاد أخرى اجتماعية وتنظيمية وثقافية منها البعد الاتصالي.

١ - الإعلام والدعوة والدعاية:

ينبغي الاعتراف أن عدم إشارة المراجع الدعوية لذلك النوع من الإشكالات المفاهيمية لا يعني عدم حضورها في متن تلك الدراسات، التي تعرض حساسية أقل تجاه الجوانب المنهجية المتعلقة ببناء المفاهيم، لميولها نحو الجوانب الوصفية ونزوعها العملية/ البراجماتية، ومن ثم عدم احتمال بروز هذا النوع من الإشكالات في متن تلك

---

(١) محمود، طه عبد الله. **أساليب ووسائل ممارسة العلاقات العامة في المؤسسات الدعوية بالسودان**، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص١٥٥. نقلاً عن:

- العرماني، محمد زين الهادي. **الدعوة الإسلامية الشمول والاستيعاب**، ط١، الخرطوم: مطابع السودان للعملة، ٢٠٠٥م، ص ١٠.

(٢) To Call People to Islam، وهو تعريف أورده الشيخ السويدان، محاضرة في مسجد منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم حيث تحدث عن الطريقة التي أسلم بها، ٣٠/ ١٢/ ٢٠١٠م.

الدراسات. وفي المقابل كانت تلك الإشكالات من أهم ما جابه محاولات التأصيل الإسلامي للإعلام على نحو ما ستبرزه الفقرات القادمة.

في السياق المعاصر أسهبت بحوث الإعلام في محاولاتها للتمييز -على أساس الدلالة- بين كل من مفاهيم الدعوة والدعاية والإعلام، وبين محاولات التوفيق والتفريق توزعت المواقف العلمية، ما بين موقف يتجه إلى التوفيق بين الدعوة والإعلام والتفريق بين الدعوة والدعاية، وآخر يدعو لما هو أكبر من ذلك إلى التفريق والتمييز بين مفهومي الدعوة والإعلام، ويمثل الموقف الأول محيي الدين عبد الحليم الذي يرى "أن الإعلام يعني تزويد الجماهير بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة، باستخدام كافة الوسائل القديمة منها والحديثة،" والإعلام إذا صح أداؤه وحسن عمله، فإنه يحقق للدعوة الانتشار والفاعلية، ويحقق التأثير المستهدف، فالإعلام والدعوة يحملان المعنى نفسه على الصعيدين النظري والعملي، وإذا استعرضنا التعريف العلمي للإعلام نجد أنه يتطابق مع مفهوم الدعوة بمعناها الأصيل، فإنها إذن نشاط إعلامي، ولكنه إعلام من نوع خاص، إنها الإعلام بالرسالة، وعلاقة الإعلام بالدعوة تختلف عن علاقته بالعديد من العلوم والفنون الأخرى، حيث إن علاقته بالدعوة هي علاقة من نوع خاص، فالإعلام هو المحرك الرئيس الذي تدور به قافلة الدعوة، ومن خلاله تتحقق أغراضها، ومن ثم فإن الفصل بين النشاط الدعوي والنشاط الإعلامي يجافي الحقيقة، وبذلك فنحن نؤكد على وحدة النشاطين.

كما يرى أن الدعوة بمعناها الأصيل تختلف عن الدعاية بمفهومها الحديث، على الرغم من أن الأصل اللغوي لكل منهما واحـد، لأن الدعاية كثيراً ما تستند إلى الخيال، وتعمل على فرض وجهة نظرها، مستهدفة من وراء ذلك إخفاء وجهة النظر الأخرى. وتستغل الدعاية سلبية الناس، وتعمل على تخديرهم، ولا تحفل بإيقاظ عقولهم أو إشراكهم في الأمر، وقد تشوه الحقائق أو تضخمها أو تبترها، وليست الدعوة هكذا،

بل إنها تنأى بنفسها عن أن تنهج هذا النهج.[1]

وكثيراً ما تلجأ الدعاية إلى الكذب والمبالغة في القول وبث الشائعات، معتمدة في ذلك على التعبيرات البراقة والصيغ المحفوظة، وقد ينهج العاملون بالدعاية نهجاً لا يتفــق مع الأخلاق والمثل العليا، وقد اكتسبت الدعاية هذه المعاني والأوصاف بعد الحرب العالمية الثانية، حين شوّه (أدولف هتلر) معناها في حربه الدعائية ضد الحلفاء على يد وزير دعايته (جوبلز)، فتحت منحىً آخر خرج بها عن أهدافها النبيلة.

ويتجاوز الذين يربطون الدعوة بالدعاية الحقيقة، كما أن الخطط الإعلامية في المجتمعات الإسلامية لن يكتب لها النجاح المطلوب في غيبة دعم دعوي وتأييد روحي من رجال الدين، وبالمقابل لا فاعلية تُرجى لخطط الدعوة إذا لم يكن لها ظهير من رجال الإعلام؛ لأن الفريقين يمثلان قادة الرأي في هذه المجتمعات، وهم قادرون على تحقيق النجاح لهذه الخطط أو إفشال نشاطها، ويتميز النظام الإعلامي على نظيره الدعوي أنه يحتوي على قدر أكبر من التحكم عبر متابعة ومراقبة مباشرة ممن يطلق عليهم خبراء الإعلام، حراس البوابات الإعلامية؛ لأنهم هم الذين يسمحون بمرور ما يقتنعون به، ويمنعون ما لا يتفق مع فكرهم ورؤاهم، وفي الوقت نفسه؛ فإن الخطط الدعوية لن يتحقق لها الانتشار المطلوب في غيبة وسائل الإعلام الحديثة؛ لأنها في حاجة إلى شبكات إذاعية، وقنوات فضائية، وصحف دولية، لنقلها وتعميمها.[2]

في ذات الوقت ذهبت بعض التحليلات إلى أن الدعوة إنما هي الاتصال الذي يهدف إلى الإقناع، و"أنها اتصال يستهدف تحقيق مهمته باستعمال أدوات المنطق والاحتجاج في سبيل الإقناع بالفكر، وبذلك فإنها لا تختلف عن أي اتصال غايته

---

(١) عبد الحليم، محيي الدين. **إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت والمعطيات العصرية**، تقديم: عمر عبيد حسنة، سلسلة كتاب الأمة (٦٤)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (ربيع الأول ١٤١٩هـ/ يوليو ١٩٩٨م)، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣.

ومنتهاه هو الإقناع، سواء أكان ذلك اتصالاً سياسياً Political Communication أو تجارياً Business Communication أو إعلاناً Advertising." وتركز هذه المعالجات على الأبعاد الدلالية متجاهلة البعد "التداولي" للمفهوم، والذي يعدّ أكثر أهمية في مجال الاتصال العلمي.

إلا أنه يتوقع مع تزايد الاهتمام بالحقل الاتصالي واتساع دائرة المشتغلين به، وسعي باحثيه ومؤسساته العلمية تأكيد شخصيته كعلم قائم بذاته، أن تتجه بنيته المفاهيمية وقاموسه الاصطلاحي لاكتساب ملامح أوضح، والتعبير عن الظاهرة الاتصالية على أفق أوسع.

إن ما تقرره المرجعيات المنهجية من اضطراب في حالة المفهوم الاتصالي في السياقين الغربي والإسلامي على حدّ سواء، يمثل حافزاً للباحث والدارس والممارس في مجالات الدعوة والاتصال للسير بخطى واثقة في إعادة بناء مباحث هذا العلم، بما يحقق الاستقرار ويبين الدلالات، ويُثري المعرفة التواصلية، ويوجه الممارسة العملية، ولعل المساحة المتاحة للقيام بذلك في حدود هذا الكتاب تنحصر في حدود مفهوم الاتصال الدعوي، ويمكن من بعد تعميم منهجية المعالجة على مجمل مفاهيم العلم الاتصالي وحقوله المعرفية الأخرى.

وعلينا قبل ذلك النظر في إمكانية تخطي عقبة الاضطراب المفاهيمي المشار إليه آنفاً، والذي أشرنا إلى أسبابه وعيناها في:

- حداثة ظهور العلم الاتصالي المعاصر.
- النشأة الغربية لهذا العلم، وهي بيئة مغايرة للبيئة الإسلامية.
- قيامه على مفاهيم ومصطلحات يعزُّ وجودها بمنطوقاتها في الأصول العربية والإسلامية.
- شدة التداخل بين مباحث علم الاتصال والعلوم الأخرى.

- تسارع وتيرة التطور في مجال تقنيات ونظم الاتصال المعاصرة.

- ضعف الاهتمام بالبحث الاتصالي والإعلامي في البلاد العربية الإسلامية.[1]

مما ترتب عليه غياب المفاهيم التواصلية المتداولة إسلامياً عن ساحة البحث والنظر الاتصالي.

إن من أهم ما سيعمل عليه هذا الكتاب هو معالجة دواعي اضطراب المفهوم الاتصالي، بحيث نضمن عدم بروز هذا النوع من الإشكال ضمن التكييف المنشود لمساق الاتصال الدعوي.

ولعل التزام المنهج التاصيلي القائم على التتبع المعرفي للقضايا المثارة يعالج مشكلة حداثة ظهور العلم الاتصالي المعاصر، وتبيين قصور مناهجه ذات النزعة الوضعية والتجريبية غالباً، وذلك بإبراز الأصول المعرفية لكثير من المقولات المعروضة في سياق الجدل النظري، باعتبارها بنات لحظتها، وأنها بريئة من التعلقات باصول معرفية غير التي يشير إليها الحس والملاحظة، مما عرض المعرفة الاتصالية ودراسات الإعلام، وكأنها معارف كاملة الحداثة في حين يبرز التتبع أن كثير مما تعرضه تلك الدراسات هو مستقل عن الوقائع المدروسة، ويرجع في أصله إلى جذور بعيدة في التجربة الإنسانية في جوانبها العلمية والميتافيزيقية، وتتخذ حركة التتبع مسارين مسار تاريخي وآخر معياري، وكثيراً ما ينتهي المسار التاريخي بالتجربتين الغربية والإسلامية إلى نقاط التقاء؛ مما يتولد عنه أسئلة متعلقة بأسباب التباين والتنافر في الرؤيتين، ومبررات المفارقة لدى كل نقطة من تلك النقاط، وأما إذا كانت مسوغات علمية منهجية وهو أمر له بالغ الأثر على معيارية العلم من ناحية ومصداقية الباحث من ناحية أخرى.

أما المسار المعياري لحركة التاصيل المعرفي للاتصال؛ فهي بينة الوجهة، حيث تنقلب بالقضية المدروسة تلقاء آيات الوحي ومقتضى السنن وهي كفيلة في ظن الباحث بمعالجة

(١) العوض، "أصول الظاهرة الاتصالية في القرآن الكريم"، مرجع سابق.

أهم الإشكالات، وهو ذلك المتلعق بأشكال التعبير عن الظواهر العلمية، واصطفاء المفاهيم والمصطلحات الأكثر دلالة واستقراراً دون تحكم أو اعتساف؛ خاصة أن القرآن هو أساس الفصل في مختلفات المؤمنين، والشواهد الدالة على حسم المفهوم القرآني لمعارك الجدل الكلامي أكثر من أن تحصى، وإذا أردنا التمثيل، نجد أن تباين المفاهيم القرآنية المعبرة عن الظاهرة الواحدة مندوحة للدارس في أن يتوسع في اختياره في التعبير عن المشهودات والمعلومات دون الحرج الذي تثيره نزوع العلم الغربي نحو التحكم المفهومي، والحصر الاصطلاحي الذي يريد أن يفرض على الاجتماعيات والإنسانيات قسراً نوعاً من التحقق بما لا يلائمها من صفات الظاهرة الطبيعية من الانضباط شكلاً ومضموناً، ومرجع ذلك أن النموذج المعرفي التوحيدي لا يشاكل في طبيعته أو رؤيته أو تعبيره عن الظاهرة الإنسانية المنظور الوضعي المادي، وإذا انقطع المنظور التوحيدي عن جذره القرآني افتقد إلى أهم ضوابطه المنهجية، تماماً مثلما يحدث للمنظور الوضعي الذي يفقد خصوصيته إذا انفتح في تعريفه للعلم، ليشمل ما هو فوق المحسوس من الظواهر.

وإذا تم التوافق على حقيقة أن علم الاتصال ودراساته الحالية -بدءاً من أصوله المنهجية وانتهاء بأجندته البحثية- هو علم غربي بامتياز، يصبح التساؤل عن معياريته ودلالته على البيئات غير الغربية ومنها البيئة الإسلامية أمراً مشروعاً.

ولعل من أهم صور التعبير عن ذلك النزوع الغربي هو خريطة مفاهيم ومصطلحات العلم، ولا يتوقف الأمر عند عجز علم الاتصال بصورته الحالية عن استيعاب المفاهيم المعبرة عن الظاهرة التواصلية الإسلامية، بل يتجاوز ذلك بتعذُّر وجود مفاهيم ذلك العلم بمنطوقاتها في أصول المعرفة التوحيدية، ما يؤكد أن الامتدادات الإنسانية لتلك الظاهرة وصور التعبير عنها غائبة عن من منظور علم الاتصال المعاصر.

وقد يذهب بعضهم أنه ليس من طبيعة العلم البشري الإحاطة والشمول بما يتجاوز إمكانيات افراد الباحثين وجماعات العلماء، والإجابة كامنة في أن تكامل المعرفة الإنسانية هو شرط شمولها ومعياريتها، وعليه؛ فإن اكتفاء أي منظور بمقرراته

ومسلماته دون اعتبار للمنظورات الأخرى يجعله يعمل في إطاره الخاص، ولا يمنحه القدرة على تعميم نتائجه على نطاقات تتجاوز حدود تلك المسلمات.

ويوحد المنظور التوحيدي بين مداخل المعرفة الإنسانية بحيث تستوعب الأبعاد الحسية مستقلة عن الأبعاد العرفانية والرؤى الوضعية إلى جانب الرؤى المعيارية والجوانب الحسية مكملة للجوانب الحدسية.

ويربي القرآن الكريم بما يسوقه من براهين عقلية وشواهد عملية ومشاهد تاريخية في ذات العالم المؤمن هذا النزوع التكاملي. وعندما يتوفر نموذج تكاملي نشط قادر على قراءة الظاهرة الواحدة في أبعادها المتباينة، دون أن يعتريه التشتت أو يضطر إلى تفكيك الظاهرة المدروسة، عندما يتوفر ذلك النموذج يصبح التعدد والتداخل في المباحث الدارسة للظاهرة الاجتماعية داخل العلم الواحد، وبينه وبين العلوم الأخرى مجرد مقاربة تنظيمية للبيان والشرح، مع الحضور التام لحقيقة التركيبية والتعقيد والتداخل الحاكم على الظواهر الإنسانية.

ومما يجب أن نذكر طرفاً منه هنا أن مما يميز الاتصال الدعوي عن نظم الاتصال المعاصرة ما يتضمنه من تغليب للغايات والمقاصد على التقنيات والوسائل.

فالدعوة في سلم أولويات المجتمع التوحيدي مقصد كلي تتفرع عنه مقاصد جزئية، كما أنها في ذات الوقت وظيفة إنسانية ذات أبعاد فردية واجتماعية وأممية ووجودية.[1]

٢- تعريف الاتصال الدعوي:

وبما أن الدعوة كظاهرة اجتماعية وسلوك إنساني هي موضوع ذو وجوه متعددة وأبعاد متداخلة؛ تستدعي الدراسة الشاملة لها نوعاً من التكامل بين العلوم المتخصصة في كل بُعد من هذه الأبعاد، حيث تحتوي ظاهرة الدعوة إلى جانب البعد الديني والعقائدي بُعداً اجتماعياً تواصلياً، يفرض على بحوث الاتصال السعي لدراسة

(١) المرجع السابق.

الأنشطة والممارسات التواصلية في المجتمع، ومن بينها "الدعوة" النشاط الاتصالي الأهم في المجتمعات الإسلامية.

ومما تقرره الأصول الإسلامية، وتعززه بحوث الاتصال محاولة البحث عن تعريف يتجنب الوقوع في حصر الاتصال الدعوي في وظيفة نمطية من وظائف الاتصال. ويقلل من حدة التداخل المفاهيمي بين الدعوة والمفاهيم الاتصالية الأخرى، ويتجنب اختزال الإعلام الإسلامي برمته في الاتصال الدعوي؛ مما قاد لتعريف الاتصال الدعوي بأنه: "مبحث تخصصي من مباحث الإعلام والاتصال -في البيئات الإسلامية- يهتم بدراسة الدعوة كظاهرة اجتماعية ووظيفة تنظيمية، لها ما يقابلها من مواقع التوظيف ضمن هيكلة الدولة الحديثة، ضمن منظور تكامليٍّ تعمل فيه مناهج البحث الاتصالي جنباً إلى جنب مع مناهج البحث الشرعي ومداخل الدراسات الإسلامية، لإثراء وتقويم وتعزيز الممارسة الدعوية، وإخضاعها لنوع من التقويم العلمي المستمر، ورفدها وتعزيزها بنواتج البحوث والدراسات العلمية الرصينة."[1]

ويعد التعريف أولى الخطوات في طريق تسكين الدراسات الدعوية في صلب بحوث الإعلام ودراسات الاتصال في العالم الإسلامي، مما يعني عدم الاكتفاء بما هو حادث من وجود هذه الدراسات في إطار البحوث والدراسات الإسلامية وحسب، وسقدم الفصل التالي شرحاً أوفى لمبررات الدعوة إلى التكامل بين مناهج العلوم الإسلامية ومناهج علوم الاتصال لدراسة الدعوة، ونقول بين يدي ذلك أن دراسة الدعوة في إطار مناهج علوم الاتصال سيكفل:

- تسليط أضواء كاشفة على الجوانب الاتصالية للأنشطة والممارسات الدعوية، ومن ثم زيادة فعالية وتأثير النشاط الدعوي من خلال استكشاف الإشكالات الحادثة في هذا الجانب، وتفهّمها والسعي لمعالجتها.

---

(١) وهو اجتهاد في التعريف بما يناسب أغراض الكتاب.

- المساهمة في زيادة فاعلية الممارسة الدعوية بتزويدها بالأبعاد المنهجية والمعارف المتعلقة بفنون وتقنيات الإقناع والتأثير التي تحفل بها دراسات الاتصال.

- العمل على تطوير الممارسة الدعوية بتمليك الدارسين المعرفة الضرورية لتوظيف تقنيات الإعلام والاتصال في مجال الدعوة.

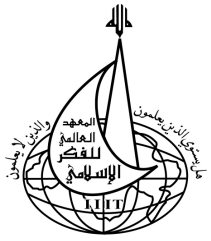
المعهد
العالمي
للفكر
الإسلامي

هذا الكتاب

محاولةٌ لإعادة توجيه اهتمامات البحث والدراسة في حقلَي الدعوة والاتصال معاً، وتعبيرٌ عن حقيقة التقارب في تقديم المقولات والمسائل المتعلقة بالإعلام وطرق معالجتها من ناحية، والدعوة من ناحية أخرى، لا بوصفها مقررات منهجية وتخصصات أكاديمية فحسب، بل بوصفها ممارسات جارية في بنية المجتمعات الإسلامية، واستجابة لدواعي التوفيق بين مسارات التطوير والتزكية والتنمية في هذه المجتمعات. ويظهر الكتاب رغبة القائمين على حقلَي الدعوة والاتصال في إكساب معالجاتهم لمحتوى تخصصاتهم مزيداً من إحكام التنسيق بين حدود المعرفة النظرية وامتداداتها التطبيقية.

وإذا كان العلم "منظومة من النظريات والمناهج والوقائع" واتخذ في تعليمه شكل الكتاب المنهجي أو المرجعي، أو مجموعة من القراءات والمراجعات، وغير ذلك من أشكال التأليف العلمي؛ فإنَّ هذا الكتاب يحاول بناء صورة من التكامل المنهجي بين دراسات الاتصال ودراسات الدعوة تفيد في تدريس مساق علمي جديد، موضوعه الأساس هو (الاتصال الدعوي)، وأن هذا المساق قادر على أن يمثل قطب الرَّحى ومحور الارتكاز في إعادة تأسيس علم الدعوة وتفعيله في واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ومِن ثَـمَّ إعادة بناء صورة الإسلام لدى الإنسان المعاصر.

مُحَمَّد بَابَكر العَوض عَبدالله

دكتوراه في الإعلام وعلوم الاتصال ٢٠١٠م، أستاذ الإعلام المشارك بجامعة الجزيرة في السودان ونائب مدير الجامعة، عمل عميداً لمعهد إسلام المعرفة في الجامعة ورئيساً لتحرير مجلّة (تفكُّر) من ٢٠١١-٢٠٠٧. وهو عضو اتحاد الصحفيين السودانيين، وعضو الرابطة الدولية لباحثي الإعلام والاتصال في الولايات المتحدة. أشرف وناقش العديد من الرسائل الجامعية. وله عدد من المؤلفات والأبحاث العلمية والمقالات. من كتبه: الإصلاح المعرفي-دور التعليم العالي في تعزيز مجتمع التوحيد، وبناء مجتمعات المعرفة، وأيام قبل نهاية التاريخ، ومستقبل الإسلام: مقاربة في فقه المستقبل، والطريق إلى مجتمع المعرفة. البريد الالكتروني: melawad@uofg.edu.sd

ISBN 978-1-56564-822-7

9 781565 648227

١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC